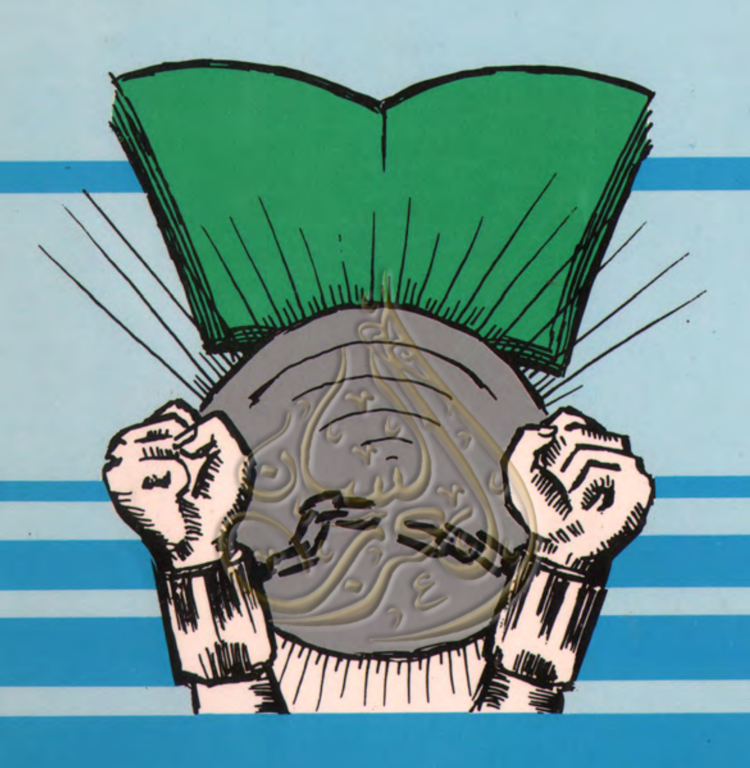
الدكتور شوقي أبو خليل

تحرير لا استعمار



منشورات

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الدكتور شوقي أبو خليل

تحرير لا استعمار



منشورات
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الطبعة الأولى

1401 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم

1991 ميلادية





تَـصْدِيرٌ

* «من حقِّ الكـريمِ ألَّا يُتَّهم بـالبُخْـل ، كمـا أنَّ من حَقِّ النَّظيفِ ألَّا يُرمىٰ بِالأَدْرَانِ».

بسم الله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وبعد...

يقول ساندرز Sanders في مجلَّة (History Today): إنَّ دخول الإسلام إلىٰ فلسـطين، كان مصـادفة كمصـادفات الضَّرورات السِّياسيَّة أو العسكريَّة علىٰ يد: **«الخليفة عمر، المستعمر العربي»**.

ويقول المنسنيور كولِي في كتابـه: (البحث عن الدِّين الحقيقي)، الصَّادر عن اتحاد مؤسسات التَّعليم المسيحي في باريس، سنة ١٩٢٨ م:

«لقد وضع محمَّد السَّيف في أيدي الَّذين اتَّبعوه، وتساهل في أقـدس قوانين الأخـلاق، ثمَّ سمح لأتبـاعه بـالفجور والسَّلب، ووعـد الَّذين يهلكـون في القتـال بـالاستمتـاع

باللَّذات، وبعد قليل أَصبحت آسية الصُّغرىٰ، وإِفريقية، وإِسبانية فريسة له».

يستنتج المرء من القولَيْن السَّابِقَيْن:

أَنَّ العرب المسلمين مستعمرون، دفعهم الخصب في آسية الصُّغرى وإِفريقية وإِسبانية إِلى الغزو، بغية الفجور والسَّلب، لا رسالة إِلٓهيَّة تدفعهم، ولا خطة مرسومة إنسانيَّة تحثُّهم، إِنَّهم ككل الفاتحين الذين شهدتهم البشريَّة على مسرحها الرَّحب بين فترة وأُخرىٰ.

وعمر (رضي الله عنه) مستعمر عربي!!

وتساهل المسلمون في فتوحاتهم في أَقدس قوانين الأَخلاق!!

والغنيمة هي الهدف: «ثمَّ سمح لأَتباعه بالفجور والسَّلب»، فوقعت البلاد الَّتي فُتِحَتْ فريسة لهم.

إِنَّ الَّذين يجعلون من الإِسلام (حركة استعماريَّة) يغفلون ـ أَو يتغافلون ـ عن أَمْرَيْن اثنَيْن مهمَّيْن، يتوضَّحان:

١ ـ بمقارنة الحروب الشَّهيرة الَّتي شهدها التَّاريخ، بفتوح الإِسلام، حيث تظهر أَوجه الخلاف جليَّة.

٢ ـ وبتعريف الاستعمار، ومعرفة آثاره، حيث يتبيَّن فيما إذا خلَّف الإِسلام مثل هذه الآثار!.

* * *

عرف التَّاريخ بُدَاةً فاتحين، أَشهرهم:

الهيكسوس (الملوك الرُّعاة)(١): زحفوا على وادي النيل منتصرين، ولكنهم عادوا منه منهزمين، يحملون حضارته ديانةً وطريـق حياة، ونمط معيشته.

والإسكندر المكدوني(٢): حاول في فتوحاته إقامة حضارة عالميَّة، بلغة الإغريق وفكـرهم، ولكنه فشـل، وانقسمت ممتلكاته بعد موته مباشرة إلى ثلاث دول:

ـ الدَّولة الأَنتيغونيَّة في آسية الصُّغرىٰ واليونان، وعاصمتها بيلا.

ـ والـدَّولة السَّلوقيَّـة في بلاد الشـام والعراق وفـارس، وعاصمتها أنطاكية.

ـ ودولة البطالمة في مصر وعاصمتها الإسكندرية.

---

(١) أو (هيك سوس) بمعنىٰ ملوك الخيل: [هيك: الملوك، وسوس: الخيل]، وهذا المعنىٰ أَقرب، لأَنَّ هجماتهم على مصر اعتمدت كُلِّياً على العربات الَّتي تجرُّها الخيل، بالإضافة إلىٰ الفرسـان المرافقين للجيش.

(٢) أَو الإسكندر الكبير: [٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق. م]، وُلِـدَ في مكدونيـة ـ شمالي اليونان ـ وتوفي في بابل ـ العراق ـ ، تعلَّم علىٰ أرسطو، خلف أَباه فيليب فبدأ زحفه على الشَّرق، فهزم داريوس كسرىٰ الفرس سنة ٣٣٣ ق. م و٣٣٢ ق. م في إيسوس وإربيل، وتجاوز في زحفه ضفاف نهر السِّند.

والهُونُ والجِرمان والفِنْدال: استطاعت هذه القبائل الزَّاحفة من أواسط آسية وشواطىء بحر الخزر إلى أُوروبة، تغيير الوجه السِّياسي لهذه القارة، ولكن روما استطاعت أن تبتلع هؤلاء البُدَاة الرُّعاة، وتصهرهم كُلِّياً، وأَنهت طرائق تفكيرهم الَّتي جاؤوا بها.

وقبائل المغول: غيَّرت وجه آسية من الصِّين إلى فلسطين، واستطاع (هولاكو)[1] فتح بغداد حاضرة العالم آنذاك، ولكن هل استطاع المغول إقامة حضارة تبتلع الحضارات الموجودة في البلاد الَّتي فُتِحَت؟ لا.. بل انصهروا في حضارة البلاد الَّتي فتحوها، وعادوا وهم يعتنقون ديانة البلاد المغلوبة، فغيَّرت فتوحاتهم في طرائق تفكيرهم عندما أَعلنوا إسلامهم.

ولم تستطع حضارة الإغريق من جهة، وحضارة الفُرْس من جهة أُخرىٰ أن تصهر العرب الفاتحين، لأَنَّ العرب الفاتحين حملوا إلى العالم حضارة متكاملة، انطلقوا يحملون رسالة السَّماء الَّتي هي في حقيقتها: تكريم للإنسان، وإخاء للبشريَّة، ومساواة للخلْق، وإنقاذ للشُّعوب، وتحرير للرُّوح من عبوديَّة ما سوىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

لذلك ـ وكما يقول توماس آرنولد[2] ـ تقبلَّتِ الشُّعوبُ

---

(١) هولاكو [نحو ١٢١٧ ـ ١٢٦٥ م] حفيد جنكيز خان، قضىٰ على الخلافة العبَّاسيَّة سنة ١٢٥٨ م، وهُزِمَ جيشه بقيادة كتبغانوين في عين جالوت في فلسطين سنة ١٢٦٠ م.

(٢) في كتابه: (الدَّعوة إلىٰ الإسلام)، ص: ١٨٦ و١٨٧.

الإسلامَ بصدر رحب، لتعاليمه الواضحة المفهومة الَّتي تقوم على الوحدانيَّة، وأَصبح الملجأَ الطَّبيعي للنَّاس.

إنَّ الفتح الإسلامي لم ينحسر عن غالب ومغلوب، عن عزيز منتصر، وذليل منهزم تجيش الأحقادُ في صدره، بل انحسر عن تحرير وإخاء ومساواة بين الفاتحين والشُّعوب، انحسر عن وحدة في العقيدة والتَّفكير.

الإسلام الحربي (الفاتح) كان يكتفي من الفتح بإدخال الأَرض المفتوحة تحت لوائه وسلطانه، ثمَّ يترك النَّاسَ وما كانوا عليه من الدِّين، يؤدُّون ما يجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد، وإنَّما يكلِّفهم بمبلغ زهيد جداً، ليكون عوناً على حمايتهم، والمحافظة على أَمنهم في ديارهم، وهم في عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أَحرار لا يضايَقُون في عمل، ولا يضامُون في معاملة[1].

فالحرب ضرورة لتحقيق خير البشريَّة جمعاء.

ضرورة لتحقيق المُثُل الإنسانيَّة العُلْيا، الَّتي جعلها الله غاية للحياة الدُّنيا.

ضرورة لتأمين النَّاس من الخوف، وتأمينهم من الظُّلم، وتأمينهم من الضر.

---

(١) الإسلام بين العِلْم والمدنيَّة، كتاب الهلال، العدد ١١٤، (سبتمبر ١٩٦٠ م.

ضرورة لتحقيق العدل في الأرض.

ضرورة لتحرير الشُّعوب من الذُّل والعبوديَّة، والفقر والمرض والجهل.

فأَيهما حقَّق هذه المعاني بصدق في فتوحاته: الإِسلام وأَهدافه، أَمْ الاستعمار وغاياته؟؟! إن (حرب تحرير البشريَّة) حرب على النُّظم الاستبداديَّة، وعبوديَّة البشر لناسٍ من البشر، وهذه الحرب فيها آفاق من السُّموِّ لا يبلغه إِلَّا الإِسلام، ولن تقترب من ساحتها تلك الحرب الاستعماريَّة الَّتي تديرها وتوجهها رؤوس الأَموال الجهنَّميَّة، لتربح من وراء الصِّناعات الحربيَّة مليارات الدُّولارات، ولو أَنَّها حربٌ تقتات بالأَرواح والأَجسام، والدَّمار ودموع الأَيامى والأَيتام...

* * *

ونحن في هذا الكتاب من حقِّنا إِظهار الحقيقة والدِّفاع عنها: «فمن حقِّ الكريمِ أَلَّا يُتَّهم بالبُخْلِ، كما أَنَّ من حقِّ النَّظيفِ أَلَّا يُرْمى بالأَدرانِ»، ولإِظهار الحقيقة ـ كما رأيناها ـ موثَّقة، ستكون الفصول التَّالية بناء هذا الكتاب:

ـ تعريف التَّحرير، مع لمحة سريعة عن انتشار الإِسلام وفتوحه.

ـ تعريف الاستعمار، وجذوره (الحروب الصَّليبيَّة)،

وأسبابه، والتّنافس الاستعماري، وأنواع المستعمرات، ونتائج الاستعمار.

ـ مقارنة بين نتائج الفتح الإسلامي وآثاره، ونتائج الاستعمار وآثاره.

ـ الاستعمار الفكري الحديث (الغزو الثّقافي ـ التّبشيري)، مقارنة بين الدّاعي المسلم، والمبشّر المسيحي.

ونختم هذا التّصدير بقولنا:

الفتح الحقيقي، هو الفتح الّذي ينشر حضارة تقف على ركيزتَيْن:

أولاهما: رقيب ذاتي يضمن الوفاء والإنصاف والعدل، ولن يكون رقيب ذاتي للنّفس البشريّة، كإيمانها بالله قيُّوم السّماوات والأرض، الّذي يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخفىٰ، والقائل في محكم التّنزيل: **﴿وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ ٱللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾** [البقرة: ٢/ ٢٨١].

وثانيهما: الأُخوَّة الإنسانيَّة الجامعة، دون حجر على حُرِّيَّة الرَّأي مطلقاً، والإسلام بالغ في احترام الرِّسالات السَّماويَّة، ثمَّ عطف على الرَّوابط الإنسانيَّة، وركَّزها في الآية الكريمة: **﴿يَا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**، [الحُجُرات: ٤٩/ ١٣].

فأَين الاستعمار من هاتَيْن الرَّكيزتَيْن، وهو الَّذي عوَّد النَّاس الخداع والمراوغة، وأَلِفَت الشُّعوب المستَعْمَرَة منه نقضِ المواثيقِ، وخلف المواعيد، مع عنصريَّة جعلت منه شريحةً فوق الشُّعوب؟؟!.

د. شَوقي أبو خَليل

دمشق في ٢٠ صفر ١٤٠٠ من وفاة الرَّسول
الموافق ١٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠ م.

* * *
* *
*

«١»

آلتَّحْرِيرُ:

* آفاق من الإنسانيَّة لا يبلغها إلاَّ الإسلام.
* سهولة الفتح وسرعته.

التَّحرِيرُ

* ﴿إِذْ قَالَتْ آمْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾.

[آل عمران: ٣/٣٥].

وردت كلمة (تحرير) في كتاب الله المجيد، في ثلاث آيات، هي:

١ - ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا...﴾، [النِّساء: ٤/٩٢].

٢ - ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ آللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلٰكِن يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُم أَو كِسْوَتُهُم أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ...﴾، [المائدة: ٥/٨٩].

٣ - ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَآللهُ بِمَا تَعْلَمُونَ خَبِيرٌ﴾، [المجادلة: ٥٨/٣].

ووردت أَيضاً كلمة مُحَرَّراً في سورة آل عمران:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾، [آل عمران: ٣/٣٥].

ومن مادَّة [حرر] في لسان العرب:

الحُرُّ: نقيض العبد، والجمع أَحرارٌ وحِرارٌ.

والحُرَّة: نقيض الأَمَة، والجمع حرائر.

وحرَّره: أَعتقه، وفي الحديث الشَّريف: من فعل كذا وكذا فله عَدْل مُحَرَّرٍ، أَي أَجر مُعْتَق.

والمحرَّر: الَّذي جُعِلَ من العبيد حُرّاً فأُعتق، يقال: حَرَّ العبدُ يَحَرُّ حَرارَةً، أَي صار حُرّاً، ومن حديث أَبي هريرة(١): فأَنا أَبو هريرة المُحَرَّرُ، أَي المُعْتَقُ، وحديث أَبي الدَّرداء(٢): شـراركم الَّذين لا يُعْتَقُ مُحَـرَّرُهُمْ، أَي أَنَّهم إِذا أعتقـوه استخدموه، فإِذا أَراد فراقهم ادَّعُوا رِقَّه.

وأَمَّا ما ورد في حديث ابن عمر أَنَّه قال لمعاوية: **خاجتي عطاء المُحَرَّرِينَ**، أَراد بالمحرَّرين الموالي الَّذين أَسلموا بعد الفتح.

---

(١) أَبو هريرة: عبد الرَّحمٰن بن صخر الدَّوسي [ت ٦٧٩ م] صحابي، كان أكثر الصَّحابة حفظاً للحديث وروايةً له.

(٢) أَبو الدَّرداء: عُوَيْمر بن مالك بن قيس بن أُميَّة الأَنصاري الخزرجي [ت ٦٥٢ م] صحابي، من الحكماء الفرسان القضاة.

وتحريرُ الولد: أَن يفرد لطاعة الله عزَّ وجلَّ، وخدمة المسجد.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾، قال الزَّجاج: هذا قول امرأة عمران، ومعناه جعلته خادماً، يخدم في مُتَعَبَّداتك، وكان ذلك جائزاً لهم، وكان علىٰ أَولادهم فرضاً أَن يطيعوهم في نذرهم، فكان الرَّجل ينذر في ولده أَن يكون خادماً يخدمهم في متعبَّدِهم ولعُبَّادِهم، ولم يكن ذلك النذر في النِّساء، إِنَّما كان في الذُّكور، فلما ولدت امرأة عمران مريم قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾، وليس الأُنثىٰ مما تصلح للنذر، فجعل الله من الآيات في مريم لما أَراده من أَمر عيسىٰ عليه السَّلام أَن جعلها متقبَّلة في النذر، فقال تعالىٰ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

والحُرُّ من النَّاس: أَخيارهم وأَفاضلهم، وحُرِّيَّةُ العرب: أَشرافهم.

والحُرُّ من كلِّ شيء: أَعتَقُه، وفرسٌ حُرٌّ: عتيقٌ، وحُرُّ الفاكهة: خيارُها.

والحُرُّ: كلُّ شيءٍ فاخرٍ من شِعْرٍ أَو غيره، وحُرُّ كل أَرض: وسطُها وأَطيبها.

والحُرَّة والحُرُّ: الطِّين الطَّيب، وحُرُّ الرَّمل، وحُرُّ الدَّار: وسطها وخيرها، وطينٌ حُرٌّ: لا رمل فيه، ورملة حُرَّة: لا طين فيها، والجمع حرائر، والحُرُّ: الفعل الحسن.

وسحابة حُرَّة: كثيرة المطر.

والمراد من (تحريـر) في عنوان هـذا الكتاب: نقيض العبوديَّة، وفتوح المسلمين تحرير للشُّعوب من العبوديَّة لما سوىٰ الله عزَّ وجلَّ.

* * *

آفاق مِنَ الإنسَانيَّة لا يبلغها إلا الإسلام:

تمَّت فتوحات الإسلام الكبرىٰ في عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفَّان رضي الله عنهما، وتابع الأُمويون الفتوحات شرقاً وشمالاً وغرباً، وكانت سنة ٨٢ من وفاة الرَّسول ﷺ قمة التحرير، ففي هذه السَّنة المذكورة، وأَيام الوليد بن عبد الملك، فتح في جبهة الشَّرق محمَّد بن القاسم الثَّقفي مدينة (الـدَّيْبُـل)(١)، وفتـح قتيبـة بن مسلم البـاهلي مـدينـة (سمرقند)(٢)، وفتح في جبهة الغرب طارق بن زياد وموسىٰ ابن نصير مدينة (طليطلة)(٣)، وفي جبهة الشَّمال سار مسلمة

---

(١) الدَّيْبُل: قرب موقع كراتشي حالياً، كانت مفتاح وادي السِّند، وفي معجم البلدان ٢/٤٩٥: «الدَّيْبُل: بفتح أَوَّله، وسكون ثانيه، وباء موحَّدة مضمومة، ولام: مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند».

(٢) سَمَرْقَنْد (سُمْران): كبرى المـدن بما وراء النَّهـر، وهي قصبة الصُّغد، [معجم البلدان: ٣/٢٤٦].

(٣) طُلَيْطُلَة: مدينة كبيرة في الأَندلس على شاطىء نهر تَاجُه، [معجم البلدان: ٤/٣٩].

ابن عبد الملك مخترقاً آسية الصُّغرىٰ وحاصر (القسطنطينيَّة)[1].

ولقد رافق هذه الفتوح تنظيم إداري رفيع، وتعريب للدَّواوين والنَّقد، وبناء اقتصادي متين، لسنا هنا بصدد عرضها وشرحها، ولكن لننظر إلىٰ هذه الفتوح في:

بلاد الشَّام: تحوَّل البدو المسيحيُّون إلىٰ الإسلام بالتَّسامح: «إنَّ هذه القبائل المسيحيَّة الَّتي اعتنقت الإسلام، إنَّما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حُرَّة، وإنَّ العرب المسيحيِّين الَّذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التَّسامح»[2].

وفي بلاد الشَّام جَدَل الإسلام إِكليل غار، جعله فوق جبين البشريَّة إلىٰ الأبد، حين أعاد أبو عبيدة بن الجرَّاح الجزية إلىٰ أهل حمص وقرَّر الانسحاب جنوباً إلى اليرموك، فقال أَهل حمص وهم يبكون: «يا معشر المسلمين، أَنتم أَحبُّ إلينا من الرُّوم، وإن كانوا على ديننا، أَنتم أوفىٰ لنا، وأَرَأَف بنا، وأَكفُّ عن ظلمنا، وأَحسن ولاية علينا، ولكنهم ـ أي الرُّوم ـ غلبونا على أَمرنا وعلىٰ منازلنا»[3].

وقال خالد بن الوليد لجَرجَة بن تيودور قبيل معركة

(١) القسطنطينيَّة: إسطنبول حاليّاً (الأستانة) تشتهر بمناعة أسوارها، تقع على مضيق البوسفور الواصل بين البحر الأسود وبحر مرمرة.
(٢) الدَّعوة إلىٰ الإسلام، ص: ٦٩ و ٧٠.
(٣) فتوح البلدان (البلاذري)، ص: ١٣٧.

اليرموك، عندما سأل جَرَجة: «فما منزلة الَّذي يدخل فيكم ويجيبكم إلىٰ هذا الأمر اليوم؟ قال خالد: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا، وأَوَّلنا وآخرنا».

مِصْـرُ: «ويرجع النَّجاح السَّريع الَّذي أَحرزه غزاة العرب، قبل كلِّ شيء إلىٰ ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيِّين الَّذين كرهوا الحكم البيزنطي، لما عُـرف به من الإدارة الـظَّالمـة، ولمـا أَضمـروه من حقـدٍ مـريـرٍ علىٰ علمـاء اللاَّهوت»[1].

لقد قدَّم الفتح الإسلامي لسكَّان وادي النِّيل:

- خلَّصهم من الضَّرائب العالية المرهقة، ولم يأخذ منهم إلاَّ العشر مما كان يأخذه الرُّوم.

- وضمن لهم الحرِّيَّة الدِّينيَّة المطلقة، «حياة تقوم على الحرِّيَّة الدِّينيَّة الَّتي لم ينعموا بها قبل ذلك»[2].

الأَندلس: إنَّ فتح المسلمين للأَندلس: «اتَّسم بالحكمة، ولم يكرهوا النَّاس على الدُّخول في دينهم، اكتفاء بدفع الجزية، وغدت إسبانية في عهود حكمهم تنعم بأَوفىٰ قسط من الرَّخاء والرَّفاهية»[3].

---

(١) الدَّعوة إلىٰ الإسلام، ص: ١٢٣.

(٢) المـرجـع السَّـابـق، ص: ١٢٣، وسـويـرس، ص: ١٠٦، و: Renaudot p. 161.

(٣) موسوعة المعرفة: ٦٨٤/٤٣، الطَّبعة العربيَّة.

«وقد بلغ تأثير الإسلام في نفوس معظم الَّذين تحوَّلوا إليه من مسيحيِّي إسبانية مبلغاً كبيراً، حتَّىٰ سحرهم بهذه المدنيَّة الباهرة، واستهوىٰ أفئدتهم بشِعْرِهِ وفلسفته وفنِّه الَّذي استولىٰ على عقولهم، وبهر خيالهم»[1].

وتساءل غوستاف لوبون: لو انتصر العرب المسلمون في بلاط الشُّهداء (بواتييه)[2]، فما كان يصيب أُوروبة؟ «كان يصيب أُوروبة النَّصرانيَّة المتبربرة مثلُ ما أَصاب إسبانية من التَّقدُّمِ والارتقاء، والحضارة الزَّاهرة الرَّفيعة تحت راية النَّبيِّ العربيِّ. . .»[3].

ويقرِّر (لوبون) ويجزم أَن العرب ذوو أَثر بالغ في تمدين الأَقطار الَّتي خضعت لسلطانهم:

«وإنَّ كلَّ بلد خفقت فوقه راية الرَّسول تحوَّل بسرعة، فازدهرت فيه العلوم والفنون والآداب والصِّناعة والزِّراعة أَيَّما ازدهار»[4].

---

(١) الدَّعوة إلىٰ الإسلام، ص: ١٦٤.

(٢) بلاط الشُّهداء (بواتييه): موقع في شمال غربي فرنسة، استشهد فيه عبد الرَّحمٰن الغافقي في تشرين الأَوَّل (أكتوبر) سنة ٧٣٢ م.

(٣) حضارة العرب، ص: ٣٩١، وفي ص ٥٥٤ يقول لوبون: «ولا شيء يُورِث العجب أكثر من حضارة العرب على همجيَّة جميع الغزاة، ومِنْ تخرُّجِ هؤلاء الغزاة، من فورهم، على مدرسة العرب المغلوبين، فقد دام عمل العرب في حقل الحضارة إلىٰ ما بعد زوال سلطانهم السِّياسي. . .».

(٤) حضارة العرب، ص: ٣٩١.

بلاد فارس وما وراء النَّهر: «وظهر الفتح الإسلامي كمخلِّص للشَّعب من حكم السَّاسانيِّين[1]، وذلك باعتراف غيتاني»[2]، لذلك لا غرابة أن يعترف أكثر من مستشرق: «أنَّ سكان المدن وخاصَّة الصُّنَّاع وأصحاب الحِرَف وأهل الطَّبقة العاملة قد رحَّبُوا بالدِّين الإسلامي، واعتنقه عدد عظيم منهم في حماسة كبيرة»[3].

وبدأ انتشار الإسلام فيما وراء النَّهر عندما وصل قتيبة بن مسلم الباهلي إلىٰ المنطقة، والتَّاريخ يشهد أنَّ المسلمين قد بثُّوا الدُّعاة في المنطقة كما حدث أيَّام عمر بن عبد العزيز، ودخل السَّلاجقة الأتراك في الإسلام دون عنف أو قتال، بل بمجاورة المسلمين في منطقة تركستان، وبث الدُّعاة بينهم، وبإعجابهم بسيادة الأمن والنِّظام فيما بين المسلمين.

والمغول.. الَّذين جاءت موجاتهم من الشَّرق، فاندحرت الجيوش أمام أمواج مدِّهم الكبير، ولم ينزل من الخطوب والويلات مثل ما نزل من جرَّاء وحشيتهم، حيث دَرَسوا كلَّ مدنيَّة أو ثقافة وداسوها، كيف اعتنقوا الإسلام؟.

---

(١) السَّاسانيُّون: سلالة فارسيَّة حكمت: ٢٢٦ - ٦٥١م، أسَّسها أَردشير الأوَّل، أشهر ملوكها: شابور الأوَّل، وشابور الثَّاني، وكسرىٰ أنو شروان.

(٢) Caitani, vol. ii pp. 910 - 911.

(٣) الدَّعوة إلىٰ الإسلام، ص: ٢٣٧، عن: De Gobineau (2), pp.. 306 - 316.

يقول بعض المؤرِّخين: إن إسلام تغلق تيمور خان: Tu-qluq Timur Khan: [١٣٤٧ - ١٣٦٣ م] ملك كاشغر[1]، كان على يد رجل من أهل الورع والتَّقوىٰ في مدينة بُخَارىٰ، يقال له الشَّيخ جمال الدِّين، وكان معه جماعة من التُّجار، وكانوا قد دخلوا أراضي حِمَىٰ لصيد الأمير تغلق تيمور، فأمر بأن توثق أيديهم وأرجلهم، وأن يمثلوا بين يديه، ثمَّ سألهم في غضب: كيف جرؤوا على دخول هذه الأرض؟!.

فأجاب الشَّيخ بأنَّهم غرباء، ولا يعلمون أنَّهم يجوسون أرضاً محرَّمة.

ويسألهم الأمير تغلق تيمور: من أين أنتم؟ فيجيبون: إنَّهم من بلاد فارس، فيقول الأمير: إنَّ الكلب أغلىٰ ثمناً منكم. ويجيب الشَّيخ جمال الدِّين: **نعم، قد لا نكون أغلىٰ ثمناً من الكلب، لو أنَّنا لم نَدِن بالدِّين الحقِّ.**

ولما راعَ الأمير ذلك الجواب، أمر بأنْ يقدَّم إليه الشَّيخ الجسور عند عودته من الصَّيد، ولما خلا به سأله ماذا يعني بهذه الكلمات، وما ذلك الدِّين؟ فعرض عليه الشَّيخ مبادىء الإسلام وأركانه في غيرة وحماس انفطر لهما قلب الأمير، فقال: ولكنّي إذا اعتنقت الإسلام الآن، فلن يكون من السَّهل أن أهدي رعاياي إلىٰ الصِّراط المستقيم، فلتمهلني

(١) كاشْغَر: مدينة في إقليم سيكيانغ الصِّيني، (غربي الصِّين على حدود الجمهوريات الإسلامية في آسية الوسطىٰ).

قليلاً، فإذا ما آلت إليَّ مملكة أجدادي فَعُد إليَّ، وذلك أنَّ إمبراطوريَّة المغول انقسمت في ذلك الوقت إلىٰ إمارات صغيرة، وظلَّت على ذلك سنين طويلة حتَّىٰ نجح تغلق تيمور في توحيد الإمبراطوريَّة كلِّها تحت سلطانه، وجمع كلمتها كما كانت من قبل.

وفي هذه الأثناء كان الشَّيخ جمال الدِّين قد عاد إلىٰ بلده حيث مرض مرضاً شديداً، فلمَّا أَشرف على الوفاة، قال لابنه رشيد الدِّين: سيصبح تغلق تيمور يوماً ما ملكاً عظيماً، فلا تنسَ أَن تذهب إليه وتقرئه منِّي السَّلام، ولا تخشَ أَن تذكِّره بوعده الَّذي قطعه إليَّ.

ولم يلبث رشيد الدِّين إلاَّ سنين قليلة حتَّىٰ ذهب إلىٰ معسكر تغلق تيمور، وكان قد استرد عرش إمبراطوريَّة آبائه، تنفيذاً لوصيَّة أَبيه، ولكنه لم يستطع أَن يظفر بالمثول بين يدي الإمبراطور تغلق تيمور، على الرَّغم ممَّا بذله من جهود، وأَخيراً لجأَ إلىٰ حيلة طريفة: ففي ذات يوم أَخذ يؤذِّن في الصَّباح المبكِّر على مقربة من فسطاط الإمبراطور، فأَقلق ذلك الصَّوت نومه وأَثار غضبه، فأَمر بإحضاره ومثوله بين يديه، وهناك أَدَّىٰ رشيد الدِّين رسالة أَبيه، ولم ينسَ تغلق تيمور وعده، وقال: حقّاً! ما زلتُ أَذكر ذلك منذ اعتليت عرشَ آبائي، ولكن الشَّخص الَّذي قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل، والآن فإنت علىٰ الرَّحب والسَّعة، ثمَّ أَقرَّ بالشَّهادتَيْن، واتَّفق مع رشيد الدِّين على أَن يستقبل

الإمبـراطورُ الأُمـراءَ واحداً بعـد واحـد، ويعـرض عليهم الإسلام، وكان أَوَّل من عُرِضَ عليه منهم، الأمير تُوليك Tulik، فقال له الإمبراطور: أَلَا تدخل في الإسلام؟ عند ذلك سالت عبرات الأمير وقال: قد دخلت في الإسلام منذ ثلاث سنين على يد أحد رجال هذا الدِّين في كـاشغر، وأصبحت مسلماً منذ ذلك الحين؛ ولكنّي لم أُصرِّح بذلك خوفاً منك، فنهض تغلق تيمور وعانقه، ثمَّ جلس ثلاثتهم، وهكذا عرض الإسلام على سائر الأمراء، فقبلوا جميعاً، إلاَّ واحداً منهم اسمه جراس Jaras؛ فقد أَبىٰ أن يدخل في هذا الدِّين، واقترح عقد امتحان في القوَّة الجسمانيَّة بين الشَّيخ وخادمه، وكان ضخم الجثَّة، وقد بلغ من شدَّة قوَّته أنَّه كان يستطيع أن يرفع بيـديه جمـلاً ابن حولَيْن، فقبـل الشَّيخ المبارزة، وقال لذلك الأمير: إذا لم أصرعه فلن أطلب إليك أن تدخل في الإسلام، وإذا قضت إرادة الله أن ينال المغول الشَّرف ببركة هذا الدِّين، فإنَّه سوف يهب لي، بلا ريب، قوَّة أستطيع بها أن أظهر على هذا الرَّجل، وقد حاول تغلق وغيره من الَّذين اعتنقوا الإسلام جهدهم في أن يصرفوا الشَّيخ الورع عن تلك المبارزة، ولكنه أَصَرَّ على ذلك، واحتشد النَّاس، وأُتِيَ بذلك المبارز، ووقف كلٌّ منهما أمام الآخر، فبدا الشَّيخ ضعيفاً جداً بجانب ذلك الرَّجل، ولم يكد يبدأ الصِّراع بينهما حتّىٰ وَكَزَ(1) الشيخ خصمه وكزةً قويَّة في

---

(1) وَكَزَه: طعنه بجُمْعِ كفِّه، [اللِّسان: وكز].

صدره فسقط مغشيّاً عليه، وبعد قليل عاود الرَّجل المصارعة، ولكنه لم يكد ينهض حتَّىٰ سقط على أقدام الشَّيخ وصاح بكلمة الإيمان، فأكبر النَّاسُ ذلك الانتصار، وعلت أصوات الاستحسان من كلِّ مكان، وفي ذلك اليوم قصَّ ١٦٠,٠٠٠ رجل شعورهم ودخلوا في الإسلام، وأصبح الإسلام منذ ذلك الوقت دين المغول(١).

وانتشر الإسلام سلماً، وبالدُّعاء فقط، بين تتار القرم(٢)، وقبائل القيرغيز، حتَّىٰ أن مدينتهم (قازان)(٣) أصبحت المركز الرَّئيس لنشاط الدَّعوة الإسلامية، وتسرَّب الإسلام إلىٰ سيبرية أيضاً علىٰ يد قبائل من التتار الَّتي يطلق عليها: (Baraba Tatars)(٤).

جنوب شرقي آسية: لقد وصل الإسلام إلىٰ شرقي الهند وشماليِّها علي يد السُّلطان محمود بن سُبُكتكين(٥) Subuktigin، ويعدُّ أُرنج زيب Aurangzeb، وتيبو سلطان(٦)

---

(١) الدَّعوة إلىٰ الإسلام، ص: ٢٦٦، عن أبي الغازي: ٢/١٦٦، ومحمد حيدر: ١٣ ـ ١٥.

(٢) القرم: Crimée، شبه جزيرة تفصل البحر الأسود عن بحر آزوف.

(٣) قازان: Kazan، عاصمة جمهورية التتر، على نهر الفولغا.

(٤) الدَّعوة إلىٰ الإسلام، ص: ٢٨٤، عن: Radloff, vol i. p. 241.

(٥) محمود بن سُبُكتكين الغزنوي: [٩٧١ ـ ١٠٣٠ م]: فاتح الهند، وأحد كبار القادة، امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلىٰ نيسابور، وكانت عاصمته غزنة، [الأعلام: ٧/١٧١].

(٦) تيبو سلطان: [١٧٨٢ ـ ١٧٩٩ م].

Tipe Sultan موطِّداً الإسلام في هضبة الدَّكن، أمَّا في جنوبي الهند، فقد كان التُّجار المسلمون سادة التِّجارة في المحيط الهندي، ومن منطقة مليبار ـ جنوبي الهند ـ عبر الإسلام إلىٰ جزر كلديف ومالديف، ويدين سكان هذه الجُزُر بدخولهم في الإسلام إلىٰ التُّجار الدُّعاة العرب المسلمين.

ولاقىٰ التُّجار أَعظم نجاح في البنغال، وعلى أثر إسلام المغول، تمَّت هجرة واسعة النِّطاق إلىٰ الصِّين، ولاحظ الرَّحالة ماركو بولو Marco Polo، الَّذي مكث في الصِّين ما بين: ١٢٧٥ ـ ١٢٩٢ م، وجودَ المسلمين في جهات شتَّىٰ من مقاطعة يُونَّان[١].

كما أَسَّس التُّجارُ الدُّعاة بعض المراكز التِّجاريَّة في أَرخبيل الملايو ما بين القرنَيْن العاشر والخامس عشر، ومن هذه المراكز انتشر الإسلام في الملايو، والهند الصِّينيَّة، وسيام وجزر الهند الشَّرقيَّة (أَندونيسية). . مستخدمين كلَّ ما لديهم من فطنة وذكاء وأَمانة وأُلفة، وفكر ناضج خلال تجارتهم.

وكانت الهند مصدر الإسلام إلىٰ سومطرة، وكان شرف أَوَّل دعوة في مدينة أَتجيه Atjeh شمال غربي سومطرة يرجع إلىٰ عبد الله العارف، ووصل الإسلام جزيرة جاوة حيث حلَّت السُّلطة الإسلاميَّة محل السِّيادة الهندوكيَّة في جاوة الشَّرقيَّة

---

(١) يُونَّان: مقاطعة في جنوبي الصِّين، شمالي لاووس وبورمة.

سنة ١٤٧٨ م، ومن سومطرة والملايو انتشر الإسلام إلىٰ جزر سيلبس والفيليبين وجزر سولو، وإلىٰ غينية الجديدة[١].

أَوَاسِطُ إفريقيَة: انتشرت الحضارة الإسلاميَّة ـ ديناً وعلوماً ـ في أواسط إفريقية، وأَصبحت القارة محاطة بالإسلام إحاطة تكاد تكون تامَّة من الشَّمال والشَّرق والغرب، ومن الثَّابت أَنَّ الحضارة الإسلاميَّة لم تنتشر جنوبي الصَّحراء الكبرىٰ حين جُرِّد السَّيف من غمده، ولكن حين حلَّ السِّلم وطمأنينته أَخذ الإسلام يشقُّ طريقه بثقة وثبات، بفضل الدُّعاة والتُّجار.

ويعود فضل انتشار الإسلام جنوبي الصَّحراء، إلىٰ المسلمين في الشَّمال الإفريقي، فالمرابطون، ومن بعدهم الموحِّدون، كانوا يعلِّمون أَسراهم الإسلامَ بكلِّ لطفٍ وتعقُّل في الرِّباطات، ثمَّ يرجعونهم مكرَّمين معزَّزين مثقَّفين إلىٰ بلادهم.

وهكذا... لم تكن الصَّحراء الكبرىٰ حاجزاً دون انتقال الحضارة الإسلاميَّة بمظاهرها الدِّينيَّة والفكريَّة إلىٰ أَواسط القارَّة وجنوبها، ففي مستهل القرن الحادي عشر الميلادي، بدأ المرابطون فتوحاتهم لنشر الإسلام في السُّودان الغربي، فدخلت القبائل الوثنيَّة في الإسلام في السنغال، وحوض نهر النِّيجر، فأَسلم ملك صُنْغاي Songhay زاكاسي Za - Kassi

---

(١) الدَّعوة إلىٰ الإسلام، ص: ٤٠٤.

سنة ١٠٠٩ ـ ١٠١٠ م. وكان إِسلامه بمحض اختياره، وفي منتصف القرن الحادي عشر تقريباً، تأَسَّست مدينتان على النيجر الأَعلىٰ هما: جنِّي Genni، وتمبكتو Tombuktu، كان لهما أَثرٌ قويٌّ في تقدُّم الإِسلام في السُّودان الغربي[1].

ومن أَهمِّ القبائل الإِفريقيَّة الَّتي اعتنقت الإِسلام: الهَوْسَا Hausa، فنقلت الإِسلام أَينما وصل أَبناؤها في تجارتهم، ولم يكن التَّاجر المسلم نَهِماً شرهاً في طلب المال من تجارته الشَّاقة، بل كانت أَخلاقه وتسامحه وإِلفته ونظافته وبساطة مظهره، سبباً للإِعجاب به، ومن ثَمَّ اعتناق دينه.

ولما هاجر عرب التَّنجور من جنوبي تونس وغربي ليبيا جنوباً إِلىٰ دارفور، أَسَّسوا سلطنة، فانتشرت المدارس في السُّودان الأَوسط، وعمَّت الطمأنينة، وحلَّ الإِخاء في ربوع المنطقة، وانتشر الإِسلام في إِقليم سَنَّار، حيث تأَسَّست مملكة الفونج في السُّودان الشَّرقي، وهاجرت قبائل عربيَّة من منطقتي الخليج وحضرموت، لتكَوِّن سلطنات إِسلاميَّة صغيرة على طول السَّاحل الإِفريقي الشَّرقي، مثل: زنجيبار، وكُلْوَا، ودار السَّلام، ومُمبَسَّا. . .

وترجع أَسباب سهولة انتشار الإِسلام في القارة الإِفريقية إِلىٰ الأَساليب السِّلميَّة الَّتي كانت الطَّابع الغالب، على حركة انتشار الإِسلام في القارة، فحيثما شقَّ الإِسلام طريقه، كان

(١) المرجع السَّابق، ص: ٣٥٥.

هناك التَّاجر المسلم، الدَّاعي الصَّامت، الَّذي لفت الأَنظار بسموِّه الخُلُقي والفكري والرُّوحي، ففرض احترامه، حتَّىٰ ضمَّت كلُّ قرية في إِفريقية الغربيَّة والوسطىٰ داراً لاستقبال التُّجار المسلمين، فتقدَّم الإِسلام في إِفريقية بسبب بساطته وعقلانيته، والشعور بالمساواة المطلقة دون النَّظر إِلىٰ لون أَو جنس.

لقد استطاع التُّجار المسلمون بالنُّصح والإِقناع، والكلمة الطَّيبة، والقدوة المثاليَّة، أَن يحقِّقوا نجاحاً رائعاً في إِيصال الإِسلام إِلىٰ أَواسط إِفريقية وغربيِّها وشرقيِّها، وإِلىٰ شرقي وجنوب شرقي آسية، لقد كسبوا النَّاس، وعرفوا بدقَّة سبيل الوصول إِلىٰ قلوبهم، بتعلُّم لغتهم، ومراعاة عاداتهم وتقاليدهم، وبدلاً من أن يعتزلوا الإهالي، امتزجوا شيئاً فشيئاً بعامَّة الشَّعب، مع شروح حاذقة، كانوا يرونها مناسبة لتقريب عقيدتهم من أذهان الشُّعوب، وكما قال المؤرِّخ الأُوروبي Buckle: «وكان دعاة المسلمين علىٰ جانب عظيم من الحكمة والرَّوِيَّة».

* * *

سُهُولَةُ الفَتْحَ وَسُرْعَتُهُ:

لقد كلَّف الله سبحانه وتعالىٰ المسلمين حماية المؤمنين حتَّىٰ لا يفتنوا عن دينهم، مع كفِّ القوَّة عنهم بالقوَّة، لأَنَّ الدَّعوىٰ بالحسنىٰ هنا لا تُجْدي، وليس هذا مكانها، وكلَّفهم

أيضاً تحقيق العدالة الكبرىٰ في الأَرض، وتمتيع البشريَّة بهذه العدالة في كلِّ ميادينها، سواء كانت خاصَّة بالأفراد في المجتمع، أَو الجماعات في الأُمَّة، أَو بالأمم الَّتي تعيش على هذه الأَرض وتتأَلَّف منها البشريَّة. . ولو كان ظلم الفرد لنفسه، أَو ظلم الجماعة لنفسها. . فحيثما كان على وجه هذه الأَرض ظلم، فالأُمَّة المسلمة مكلَّفة أَن تكافحه وتزيل أَسبابه، لا لتمتلك الأَرض، ولتستولي على المرافق، ولتستذل الرِّقاب، بل لتحقِّق كلمة الله في الأَرض خالصة من كلِّ غرض، وهذا هو ما يطلق عليه في الإسلام: (الجهاد في سبيل الله)، أَي الجهاد لتحقيق كلمة الله، لا بإِكراه النَّاس ليكونوا مسلمين، بل بإِباحة الفرصة لهم ليخلصوا من الظُّلم والذُّل، ويملكوا حرِّيَّة الاختيار دون تدخل من القوَّة الطَّاغية الضَّالة، ولينعموا بالعدل المطلق الَّذي يريده لهم الله، فقوَّة الإِسلام قوَّة محرِّرة، تنطلق في الأَرض لتدك قواعد الظُّلم والاسترقاق والاستغلال، وهي لا تنظر في هذا المجال لجنس ولا لون ولا لغة ولا دين، النَّاس لديها سواء[١].

والإِنسان في منهج الإسلام ليس نجساً، ولا آثماً منذ ولادته، وهو لا يحمل ذنوب غيره، ولا يحمل ذنوبه أَحدٌ غيره، وغاية وجوده: (عمران الأَرض)، واعتبر هذا المنهج الرَّباني هذا البناء، وهذا الإِعمار عبادة.

ونظرة الإِسلام إِلىٰ الإِنسان (التَّكريم والعالميَّة)، مع

(١) السَّلام العالمي والإسلام، ص: ١٤٨ و ١٤٩.

التَّأكيد على طيب هـذه الحياة وبـراءتها، لـذلك شملت المساواة في الإسلام، الأَصل الإنساني، فلا فضل في عنصر أَو لون.

وإعمار الأَرض جعل العمل في الإسلام **على قدر الطَّاقة، لا على قدر الحاجة**، فلو عمل كلٌّ علىٰ قدر حاجته، فمن لمن لا يستطيع العمل لعلَّة ما؟ وأَين نظرة التَّكافل الإنسانيَّة؟ وأَين التَّضامن والإيثار وترسيخ الشُّعور بالرِّباط الإنساني؟!؟.

وما فتح المسلمون بلداً من البلاد، إلَّا وكـان سكانـه مساوين للمسلمين في جميع الحقوق، وكانوا أَحرص النَّاس على الوفاء بالعهود، وأَلزمهم لشرعة الإنصاف والعدل مع سكان البلاد المفتوحة.. إن في روح الإسلام من السَّماحة الإنسانيَّة ما لا يملك منصف أَن ينكره أَو يراوغ فيه، وهي سماحة مبذولة للمجموعة البشريَّة كلِّها، لا لجنس، ولا لأَتباع دين معيَّن، إنَّما هي للإنسان بوصفه إنساناً.

وعلى ما سبق، فحروب الفتوح الإسلامية (حرب عادلة)، لأَنها ضد حاكم مستبد، هدفها هداية النَّاس إلىٰ التَّوحيد الخالص، فلا عبودية إلَّا لله وحده، مع حرِّية أَتباع الشَّرائع الأُخرى في إقامة شعائرهم الدِّينيَّة، وحرِّيَّة مزاولة المهن والحِرَف والأَعمال الَّتي يشاؤون، وحرِّيَّة السَّكن والانتقال حيث يريدون، مع بسط الدَّولة الإسلاميَّة حمايتها عليهم، وتأخذ جزية بسيطة منهم لانتفاعهم بالمرافق العامة، والانتفاع بمؤسَّسات الدَّولة كالمستوصفات والمستشفيات.. فإذا تعذَّر

عليها أَن تحميهم، سقطت عنهم الجزية، وأَصبحوا في حلٍّ منها: «**شغلنا عن نصركم والدَّفع عنكم، فأَنتم علىٰ أمركم**».

وبعد هذا كله، يتغافل المستشرقون والمبشِّرون عن هذه المبادىء السَّامية، الَّتي جعلت الشُّعوب تُقْبِل علىٰ اعتناق الإِسلام طواعية، ويتساءلون ـ مفتِّشين ـ عن أَسباب: (سهولة الفتح وسرعته)!!.

فالمستشرق هنري ماسيه ردَّ سبب سهولة الفتح إِلىٰ أَنَّ الميدان كان مهيّأً للعرب المسلمين بسبب الخلافات الداخليَّة في دولة بيزنطة، «وقد رأينا العرب يُستقبَلُون كمحررين تقريباً من قِبَل أَقباط مصر، ومن السُّوريِّين السُّعداء بخلع النير البيزنطي، والأَمر كذلك في بلاد فارس وإِسبانية، لأَن الحكومة كانت قد أَثارت السُّكان»[1].

ويقول فيليب حتِّي: «ولقد يَسَّر الفتح للعرب أَسبابٌ منها أَنَّ فارس وبيزنطة كانتا قد وهنتا بسبب الحرب فيهما أَجيالاً طوالاً فاضطرتهما هذه الحرب إِلىٰ إرهاق رعاياهما بضرائب قاسية أَدَّت إِلىٰ نفورهم»[2].

ويقول جرجي زيدان: «إِن انتصار المسلمين كان علىٰ أُمَّة

---

(١) الإِسلام، لهنري ماسيه، ص ٨٦، منشورات عويدات، ط ١، سنة ١٩٦٠.

(٢) تاريخ العرب المطوَّل، فيليب حِتِّي، ص: ١٩٤، دار الكشَّاف ـ بيروت.

منقسمة ضعيفة منهكة»[1]، «إِنَّ سبب انتصار المسلمين اختلال أُمور الفرس»[2].

ويقول كارل بروكلمان: «وليس من شكٍّ في أَنَّ زوال هذه الرَّقابة القويَّة عن الحدود، قد يسَّرَ الفتح الإِسلامي لتلك البلاد أَيضاً فيما بعد»[3].

يناقض هذه الآراء، اعتراف المستشرقين أَنفسهم، من أَن هرقل قيصر الرُّوم «كان قد تمرَّس على الحروب، وقاتل الفرس في الشَّام ومصر ست سنوات، حتَّىٰ أَجلاهم عنها عائداً من الرُّها (أُدِيسًّا) موطن أَجداده، لتنظيم خطَّة الدِّفاع، وتجهيز جيش وافر العدد والعُدَّة، يعقد إِمارته لأَخيه ثيودورس»[4].

ويناقض أَحكامهم أَيضاً قولهم: «والسِّرُّ في مقاومة الفُرس راجع إِلىٰ أَنَّ الفُرس ينتمون إِلىٰ الجنس الآري، لا الجنس السَّامي(!؟)، ولقد كانت له عهود متطاولة من الاستقلال والوحدة القوميَّة، دع عنك ما تسلَّحوا به من جيش منظَّم، وما حازوه من دِرْبَةٍ علىٰ الحرب وخبرة بأَفانينها، ولقد سبق لهم

---

(1) و (2) فتاة غسان (روايات تاريخ الإسلام)، جرجي زيدان، ص: ٢٧٤ و ٢٨٠.

(3) تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة، كارل بروكلمان، ص ٢٤، طبعة دار العلم للملايين - بيروت. ط ٤، سنة ١٩٦٥.

(4) تاريخ العرب المطوَّل، فيليب حِتِّي، ص: ٢٠٠.

أَن صارعوا الرُّوم صراعاً عنيفاً استغرق أكثر من أَربع مئة سنة»[1].

فأَين الوهن، وقد تمرَّس الرُّوم على الحرب؟.

وأَين الوهن، وقد تسلَّح الفُرس بجيش منظَّم، وحازوا دِرْبَةً في الحرب؟.

ومع ذلك نقول لهؤلاء المستشرقين[2]:

١ ـ انتصر المسلمون في الجزيرة العربيَّة وهم قِلَّة، على إخوانهم وأَبناء عمومتهم وهم كثرة.

٢ ـ ولمن كان النَّصر في حروب المسلمين ضدَّ المتنبئين الَّذين كانوا كثرة ساحقة، والمسلمون قِلَّة؟.

٣ ـ وفي اليرموك، تداعت أَركان دولة الرُّوم في بلاد الشَّام، فإِن كان جيش الرُّوم ضعيفاً واهناً، أَلا يكفيهم أَنَّ مئة أَلف عربي متنصِّر كانوا معهم في المعركة؟ هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإِنَّ انتصار ٣٦ أَلف عربي مسلم على ربع مليونْ رومي وعربي متنصِّر يُعَدُّ في ذاته معجزة، فالانتصار لم يكن لجيش على جيش يكافئه في العَدَدِ والعُدَدِ، إِنَّما النَّصر تمَّ لجيش كانِ فيه الواحد يقابل سبعة من أَعدائه!!.

٤ ـ ترتيبات الفُرس والرُّوم عريقة، وإِمداداتهم وعتادهم

---

(١) تاريخ العرب المطوَّل، ص: ٢١٣.

(٢) آراء يهدمها الإسلام، ط ٢، دار الفكر بدمشق، ص: ٦٣.

عظيمان، وهما يحاربان في أراضيهما وضمن ديارهما، بينما يحارب المسلمون في أصقاع بعيدة عن عاصمتهم، وإمداداتهم ثمرات معدودات، وعتادهم سيف أو رمح ليس غير.

٥ - ولم يحارب المسلمون الرُّوم ثمَّ الفُرس، بل فتحوا جبهتَيْن في آنٍ واحد، حاربوا في اليرموك والقادسيَّة، ثمَّ في نهاوند، ومصر في آن واحد، وفي ما وراء النَّهر والسِّند وإسبانية وفرنسة في آنٍ واحد.

٦ - ونقول: إن الرُّوم والفُرس قد اكتسبوا فنوناً عديدة، وخبرة كبيرة، ومراساً طويلاً عبر حروبها، فعندما خرج المسلمون فاتحين من جزيرتهم، كان الرُّوم يستصغرون شأنهم، وكان الفرس يحتقرون قدراتهم.

٧ - النَّصر العسكري، ليس له قيمة تذكر أَمام انتصار العقيدة، لقد استمرت حروب الفُرس والرُّوم فيما بينهما أَربع مئة سنة، دون حسم، لأَنَّ حروبهما لأَطماع ودنيا، لا لعقيدة، ولما جاءت عقيدة الإسلام فلَّت كلَّ سلاح، وتهاوت أَمامها جيوش الفرس والرُّوم.

لقد تبع النَّصرَ العسكريَّ، نصرٌ في مجال العقيدة، واعتناقُ أَبناء الفُرس وأَبناء الرُّوم الَّذين حرَّر المسلمون أَرضهم من حكَّامها، عقيدة الفاتحين باختيار ودون إكراه، وهنا تكمن عظمة الفاتحين المسلمين، إنَّهم نقلوا الفُرس

والرُّوم إلىٰ الإسلام، فكان النَّصر الحقيقي، **انتصار العقيدة**، لا انتصار قوَّة الجسد وعضلاته.

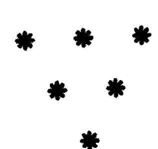
وهكذا.. فتاريخ الإسلام تاريخ متميِّز بأحداثه، وفتوحاته، وعقيدته، وآثاره، ونتائجه.. حربه حرب إنسانيَّة لا يقصد فيها التَّنكيل والتَّقتيل والتَّدمير، أو التَّشفِّي أو الاستذلال.. ما شذَّ عنها إلَّا النَّادر الَّذي لا يقاس عليه، ولا يبطل القاعدة الَّتي جعلها الإسلام غايته، وحقَّقها في واقعه، فإذا نحن ألقينا من هذه القمَّة الشَّامخة الَّتي يقف الإسلام عليها في سلمه وحربه، نظرةً على المستنقع الآسِن الَّذي تلغ فيه الحضارة الغربيَّة سِلْماً وحرباً، أدركنا بُعْدَ الشُّقة بين نظام ينزله الله للبشر، ونظام يضعه النَّاس للنَّاس، **فطبيعة الإسلام أفضت إلىٰ اعتناق الشُّعوب له، وها قد انحسر السُّلطان السِّياسيُّ والعسكريُّ.. وبقي الإسلام قوياً بأبناء الأرض المفتوحة، ولم توفَّق قُوَّة إلىٰ زحزحته أو إقصائه عن حياة الشُّعوب الإسلاميَّة!!.**

لذلك تقول المستشرقة الإيطالية: (لورافيشيا فاغليري)، في كتابها: (دفاع عن الإسلام)، ص ٤٠: «أيَّة قوَّة عجيبة تكمن في هذا الدِّين؟ أيَّة قوَّة داخليَّة من قوىٰ الإقناع تنصهر فيه؟ ومن أيِّ غور سحيق من أغوار النَّفس الإنسانيَّة ينتزع نداؤه استجابة مزلزلة؟».

ويقول جاك ويسلر في كتابه (الحضارة العربيَّة)، ص ٢٧: «قامت الانتصارات المدوِّية للعرب علىٰ أسباب متنوِّعة تتجلَّىٰ

أَهمها في الخُلُق السَّامي الَّذي كان قد تشرَّبه العرب عن الدِّين الجديد».

ونختم هذا الفصل، بالعبارة الرَّائعة الخالدة، الَّتي قالها غوستاف لوبون في كتـابه (حضـارة العرب)، ص ٧٢٠: «فالحَقُّ أَنَّ الأُمم لم تعرف فاتحينَ راحمينَ متسامحينَ مثل العرب، ولا ديناً سَمْحاً مثل دينهم».



«٢»

الاسْتِعْمَارُ:

* الاستعمار لغة واصطلاحاً.
* الحروب الصَّليبيَّة.
* التَّنافس الاستعماري ونتائج الاستعمار.

الاستِعْمَارُ

* سيطرة فرد علىٰ فرد، أو جَماعة علىٰ جماعة، أو دولة علىٰ دولة، بغية الاستغلال.

جاء في [معجم متن اللُّغة[1]: ٢٠٣/٤]: استعمره في المكان: جعله يعمُرُه: أَذِنَ له في عمارته، وفي التَّنزيل: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، [هود: ٦١/١١]، أَي جعلكم عُمَّارَهَا.

وفي لسان العرب (عَمَرَ): وأَعْمَره المكانَ واستعمره فيه: جعله يَعْمُره، وفي التَّنزيل: ﴿.. وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، أَي أَذِنَ لكم في عمارتها، واستخراج قوِمِكم منها[2]، وجعلكم عُمَّارَها.

وبناء على ما سبق، إِنَّ كلمة (استعمار) لغةً لا غبار عليها، إِنَّها تعني إِعمار الأَرض وازدهارها وخيرها..

---

(١) منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، سنة ١٩٦٠ م.

(٢) القِوام في العيش: ما يقيم الإنسان من القوت، وقِوام العيش: عماده الَّذي يقوم به، [اللِّسان: قوم].

أمَّا (الاستعمار) اصطلاحاً:

فهو سيطرة فرد على فرد، أو جماعة على جماعة، أو دولة على دولة بغية الاستغلال.

الموسوعة الفرنسيَّة (لاروس)[1] تعترف أن الاستعمار عملية سيطرة، وتفترض أن يرافق هذه السَّيطرة قيام عمل تحضيري يمارس من قبل المستعمِرين على أرض غير مأهولة أو محتلة من قبل شعوب مختلفة، ويشمل هذا العمل التَّحضيري ـ دفعة واحدة ـ الأرض والسُّكان..

أمَّا الموسوعة البريطانيَّة فقد ذكرت تحت كلمة: (COLONY)[2]: تعود جذور الاستعمار الغربي إلىٰ عصر النَّهضة الأوروبي، حيث:

ـ تقدُّم العِلْم الحديث.

ـ ورحلات الاكتشاف الكبيرة.

ـ والوجود المتزامن في إسبانية والبرتغال وإنكلترة وفرنسة للجنود والنُّبلاء، ورجال الدِّين، والتُّجَّار المتلهِّفين لعمل توسُّعي خارجي بغية تحقيق أهداف تجاريَّة وتبشيريَّة بآنٍ واحدٍ.

بدأت الحقبة الاستعماريَّة الأوروبيَّة حوالي سنة ١٤٥٠ م، ووصلت إلىٰ قمَّتها سنة ١٩٠٠ م، حيث قُسِّمت آخر الأقاليم

---

(١) لاروس القرن العشرين، (بول أوجيه).

(٢) الموسوعة البريطانية: ١٢/١٢١، طبعة عام: ١٩٦١ م.

المستقِلَّة غيرِ الأُوروبيَّة بين المستعمِرين، وبعد الحرب العالميَّة الأُولىٰ: [١٩١٤ ـ ١٩١٨]، بدأَت المرحلة المعاكسة، أَلا وهي الرَّغبة بالتَّخلُّص من الاستعمار، والرَّغبة بالاستقلال، خصوصاً بعد تنامي الرُّوح القوميَّة في كلٍّ من إفريقية وآسية، فأَخذت الإمبراطوريات الاستعماريَّة تتقلَّص بسرعة.

ولكن قبل الوصول إلىٰ القمَّة، حدثت تبدُّلات هامَّة في العلاقات الاستعماريَّة، لقد خاضت الدُّول المستعمِرَة حروباً طاحنة فيما بينها، بهدف الاحتكارات التِّجاريَّة مع المستعمرات، فالثَّورة الصِّناعية في أُوروبة بعد سنة ١٨٠٠ م، والَّتي رافقها تقدُّم تقني كبير، جعل الحاجة مُلِحَّة في الرَّغبة في إِيجاد الأَسواق الأَفريقيَّة والآسيويَّة لتصريف السِّلع المصنَّعة، مع أَخذ الموادِّ الخام، واستثمار الأَموال في البلاد المستعمَرَة، لذلك شهد العالم ما بين سنتَيْ: ١٧٧٠ وَ ١٨٢٠ م هجرة مستوطنين أُوروبيِّين إلى المستعمرات، مما سبَّب نفاد صبرها من الحكم الاستعماري المفروض، فثارت بنجاح، فاستقلَّت الأَقطار الأَمريكيَّة، وانهارت الإِمبراطوريَّة الاستعماريَّة الإِسبانيَّة، فتنبَّهت إِنكلترة إِلىٰ خطورة الموقف، فتبنَّت سياسة إِعطاء الحكم الذَّاتي، والاستقلال لكلِّ الأَقطار المستوطنة من قبل أُوروبيِّين بأَسرع ما يمكن، مع القبول بالملك الإِنكليزي القابع في لندن ملكاً لهم، مع تحالف عسكري وتجاري، وهكذا.. كان مولد (كومنولث) بريطاني.

ثمَّ تحدَّثت (الموسوعة البريطانيَّة) عن السِّياسات الاستعماريَّة:

فبريطانية تضمَّنت سياستها الاستعماريَّة أهدافاً واسعة المدىٰ، منها:

١ ـ برمجة التَّعليم لتهيئة طبقة من أبناء المستعمرات، تحفظ لبريطانية مصالحها، وخصوصاً الاقتصاديَّة منها.

٢ ـ ضمان توريد المواد الأوَّليَّة لمعامل بريطانية، ومنشآتها الصِّناعيَّة، مع تصريف المنتجات المصنَّعة في أسواق المستعمَرات.

٣ ـ البدء تدريجياً بالحكم الذَّاتي، ينتهي بالاستقلال، والمستعمَرَة حرَّة بعده في تقرير قبولها أو رفضها الانضمام إلىٰ رابطة الشُّعوب البريطانية (الكومنولث).

أمَّا فرنسة: فلقد أنكرت ـ ولسنوات طويلة ـ إمكانيَّة التكيُّف والتَّطوُّر نحو الاستقلال لمستعمراتها، وأصرَّت على الاستيعاب الكامل للمواطنين المستعمَرين وبلادهم، في النِّظام الثَّقافي والسِّياسي الفرنسي، فإدارة المستعمرات كانت مسيطرة عليها مركزيّاً في باريس، والسِّياسة التَّعليميَّة صُمِّمت لإيجاد شريحة صغيرة في البلدان المستعمَرَة، تنشَّأ تنشئة فرنسية، لتتسلَّم دفة الحكم لصالح فرنسة المتعمِرَة.

لكن فترة ما بعد الحرب العالميَّة الثَّانية: [١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ م] غيَّرت الأُسس، وقلبت بعض المفاهيم

الاستعماريَّة الفرنسيَّة. فاضطرت فرنسة أَن تعترف باستقلال الكثير من مستعمراتها، مع رباط عسكري ـ اقتصادي.

وحين تأَسَّست الجمهوريَّة الخامسة في فرنسة في ٤ تشرين الأَول (أُكتوبر) ١٩٥٨ م، أُعطي حقُّ تقرير المصير للأَقاليم فيما وراء البحار.

وأَصرَّت البرتغال على أَنَّ مستعمراتها أَقاليم للوطن الأُم، وخاضعة له حتماً، وحافظت دون مسٍّ على مذهبٍ وسياسةٍ تتميَّز بقدر من التَّعليم ضئيل، ونهب متميِّز لخيرات المستعمرات.

وسخَّرت هولندة مستعمراتها لمصالحها الاقتصاديَّة، مع ضرائب باهظة، وحرمان البلاد من غلاَّتها ومحاصيلها، فتعاقبت المجاعات والثَّورات مع الأَزمات الاقتصاديَّة في المستعمَرات.

ولم تبدأ بلجيكة عمليَّة تعليم أَو تطوير تقني لسكان مستعمراتها (الكونغو)، واهتمت بتحقيق تطوُّر تجاري سريع.

وارتأَت الولايات المتَّحدة أَنَّ ممالكها الرَّئيسة، عليها إِمَّا أَن تذعن للاتِّحاد، كما حدث في آلاسكا وهاواي سنة ١٩٥٩ م، أَو تقبل حكماً ذاتيّاً مصاحباً لسياسة خارجيَّة ـ عسكريَّة ـ اقتصاديَّة ترتبط مع واشنطن، مثل بورتوريكو، أَمَّا المستعمرات في المحيط الهندي والهادي، فلم يكن للولايات المتَّحدة خطَّة لمنحها الاستقلال.

أمَّا الاتِّحاد السُّوفييتي، فهو ينكر أنَّ لديه مستعمرات، ويصرُّ علىٰ أنَّ الأماكن غير الرُّوسيَّة، هي متوحِّدة بشكل طوعيٍّ حرٍّ مع الجمهوريات الرُّوسيَّة البيضاء، وما يجري في آسية الوسطىٰ(١)، ضمٌّ نظامي، مع تحقيق (مَرْكَسَةٍ) للأعراف القبليَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة الإسلاميَّة.

واستعمرت إيطالية الصُّومال وإرتيرية. وكان استعمارها لليبيا بدعاً، فقد قرَّرت ضمَّها إلىٰ إيطالية، وبدأت تهجير ملايين المستعمِرين الإيطاليين إلىٰ المناطق الزِّراعيَّة الخصيبة في ليبيا، بغية الاستيطان الدَّائم.

وجاء في (موسوعة السِّياسة)(٢):

استعمار Colonialism: ظاهرة سياسيَّة اقتصاديَّة وعسكريَّة متفرِّعة ومتَّصلة بظاهرة الاستعمار (الإمبرياليَّة)، وتتجسَّد في قدوم موجات متتالية من سكان البلدان الإمبرياليَّة إلى المستعمرات قبل الاحتلال العسكري أو بعده بقصد استيطانها والإقامة فيها بشكل دائم، أو الهيمنة على الحياة الاقتصاديَّة والثقافيَّة، واستغلال ثروات البلاد، ويطلق على هؤلاء عادة اسم (المستعمِرين)، ومن هنا اشتُقَّت كلمة استعمار.

---

(١) حيث الجمهوريات الإسلامية الخمس: أذربيجان، تركمنستان، أوزبكستان، قرقيزستان، قازاخستان، وبشكيريا وتاتارستان ذوا الحكم الذَّاتي.

(٢) موسوعة السِّياسة: ١٧٢/١، ط١، سنة ١٩٧٦م، المؤسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر.

وترافق هذه الظاهرة حملات عسكريَّة عنيفة من أجل حماية هؤلاء المستوطنين، وإرغام سكان البلاد الأصليِّين على القبول بهم.

أمَّا دورِ هؤلاء المستعمِرين الأجانب في البلاد المستعمرَة، والمرتبطين بالدولة الإمبرياليَّة الأم، فيكمن في تأمين استمراريَّة النَّهب الاستعماري لهذه البلاد، وربطها نهائيّاً بعجلة الإمبرياليَّة العالميَّة، ويؤدي هذا النَّوع من الاستعمار إمَّا إلىٰ طرد السُّكان الأصليِّين[1]، وإمَّا إلىٰ استئثار هذه الأقلِّيَّة المستعمِرَة بالحكم والامتيازات[2]، وهناك بالإضافة إلىٰ هذا الاستعمار الاستيطاني، الاستعمار التقليدي الَّذي يكتفي باستغلال البلاد وحكمها بواسطة جيوشه وعملائه، وكلا الاستعمارَيْن هو في نهاية المطاف نهبٌ وسلبٌ منظَّم لثروات البلاد المستعمَرَة، فضلاً عن تحطيم كرامة شعوب هذه البلاد، وتدمير تراثها الحضاري والثَّقافي، وفرض الثَّقافة الغربيَّة الاستعماريَّة علىٰ أنَّها الثَّقافة الوحيدة القادرة على نقل البلاد المتخلِّفة إلىٰ حضارة العصر.

والاستعمار الاستيطاني: Settler Colonialism: أخطر أنواع الاستعمار[3]، وهي ظاهرة استعماريَّة ترجع في جذورها

---

(١) كما حدث في فلسطين، وهذا نادر المثال!!.

(٢) كما في جنوبي إفريقية وروديسية.

(٣) إنَّ الاستعمار التَّقليدي كان عموماً أرأف في معاملة السُّكان الأصليِّين من دولة الأستيطان، حيث العنصريَّة والاستغلال =

إلى القرن التاسع عشر، وتتلخَّص في وجود غرباء، أُوروبيِّين أساساً، مزروعين وسط محيط من سكان البلاد الأَصليِّين، يشعرون النَّقاء والتَّفوُّق العرقيَّيْن، ويمارسون إزاء السُّكان الأَصليِّين شتىٰ ضروب التَّمييز العنصري، وينكرون وجودهم القومي، ويتركَّز وجود الاستعمار الاستيطاني في منطقتَيْن رئيسيتَيْن: فلسطين المحتلة، وجنوب إفريقية، ويشكِّل وجودهم الاستيطاني عبر الدُّول الَّتي أنشؤوها بالقوَّة، تحدِّياً مصيريّاً للشُّعوب الَّتي يفرضون أَنفسهم عليها، إنَّ هؤلاء المستوطنين، غير المقبولين حضاريّاً في المحيط الَّذي يعيشون فيه، أَقوياء مادِّيّاً إلىٰ حدٍّ أَنَّهم بقوَّتهم تلك يمارسون التَّأثير السِّياسي الأَهم علىٰ مستقبل المنطقتَيْن العربيَّة والإفريقيَّة، ويعوقون هاتين المنطقتين على الإنطلاق جدِّياً في مسيرة التَّنمية الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة.

وهكذا.. الاستعمار سياسة دولة تهدف إلىٰ السَّيطرة خارج حدودها على شعب لا يرغب، ولا يقبل بهذه السَّيطرة.

ولرفض المستَعْمَر هذه السَّيطرة، كان لا بُدَّ من استعمال القوَّة ضد أَبناء المستعمرات، لذلك اعتبر الاستعمار دائماً مستحقّاً للتَّوبيخ أَخلاقياً.

= الاقتصادي، وينبثق العامل الأَوَّل من شعور المستوطنين بالتَّفوُّق إزاء السُّكان الأَصليِّين، والوجه العملي للعامل الثَّاني هو تشغيل السُّكان الأَصليِّين كعمال وأُجراء وخدم لدىٰ المستوطنين. [موسوعة السِّياسة: ١/١٧٢].

ويرىٰ الأُستاذ عباس محمود العقاد أَن الاستعمار حركة إجماعيَّة ترمي إِلىٰ غرض مشترك، تحقيقاً لدعوىٰ واحدة تدَّعيها أُمم متعدِّدة في فترة محدَّدة، لها عواملها وأَسبابها الَّتي لم تجتمع قط لحركة جماعيَّة من قبلها، فلا استعمار بهذا المعنىٰ قبل الاستعمار المعروف في القرون الأَخيرة، بل لم توجد بين الأُمم حركات إجماعيَّة من قديم الزَّمن، فكلّ ما ظهر من هذه الحركات في التَّاريخ، فإِنَّما ظهر بعد عصور التَّاريخ القديم، ولم يكن في الوسع أَن يظهر قديماً، لأَنَّه مرتبط بمرحلة من مراحل التَّاريخ العالمي، لا يتهيَّأ لها أَن توجد قبل الأَوان.

وهذه الحركات الإِجماعيَّة في العصور المتأَخِّرة متداخلة مشتبكة، لا تنفصل إِحداها من الأُخرىٰ بفاصل حاسم يقطع الصِّلة بينها، بل لا تخلو حركة اليوم كلَّ الخلو، من عوارض أَمْسِها وغدها علىٰ صورة واضحة لا التباس فيها، فمن كَتَبَ عن حركة إِجماعيَّة في القرن العشرين، لم يتيسَّر له أَن يفهمها حق فهمها دون الرُّجوع إِلىٰ الحركة الإِجماعيَّة الَّتي مهَّدت لها في القرن الثَّامن عشر، ومهَّدت لها قبل ذلك في القرون الماضية.

وحركة الاستعمار إِحدىٰ هذه الحركات، لا نفهمها حقَّ فهمها ما لم نرجع قبلها إِلىٰ حركة الحروب الصَّليبيَّة، ولعلها أَوَّل حركة إِجماعيَّة قامت بدعوىٰ واحدة في التَّاريخ العالمي منذ وعيناه وأَلمحنا بالجوهري من دعاواه وذواعيه.

وينبغي أَن نفرِّق بين الحركات الإجماعيَّة الَّتي تحدث من جرّاء التَّحالف بين دول عدَّة، وبين الحركات الإجماعيَّة الَّتي تحدث من شيوع دعوىٰ واحدة بين أُمم متفرِّقة، فإِنَّما يحدث ذلك التَّحالف لأنه خطَّة من خطط القتال في أَقدم الميادين، وبغير تلك الميادين.

والحروب الصَّليبيَّة هي أَكبر الحركات الإجماعيـة بين الغرب والشَّرق، ولعلَّها أَوَّلها ومصدرها.

والاستعمار هو الحركة الإجماعيَّة الَّتي تليها، وتستعيد الكثير من دعاواها ودواعيها[١].

لا بدَّ لهذه الحركات من (دعوىٰ) مشتركة، أَو من حجَّة عامَّة، وهذا هو الفارق بينها وبين الحركات الَّتي لا ترجع إِلىٰ شيء غير توازن القوىٰ، وإِتمام العدَّة للهجوم أَو الدِّفاع.

وقلَّما خلت دعوىٰ من أَثر يبقىٰ فيها من آثار سابقتها كما تقدَّم، وقد تجتمع الـدَّعوَيَان في وقت واحد إِلىٰ حين.

وقد كانت دعوىٰ الاستعمار قائمة علىٰ (رسالة الرَّجل الأَبيض)، أَو علىٰ الأَمـانة الَّتي اضـطلعت بها الحضـارة الأُوروبيَّة لإِصلاح أُمم العالم.

وما كان في وسع القوم أَن يخترعوا هذه الدَّعوىٰ لو لم

---

(١) لا شيوعيَّة ولا استعمار، عباس محمود العقَّاد، ص ٨٢ وما بعدها، كتاب الهلال، العدد ٨٠، نوفمبر ١٩٥٧ م.

تسبقها دعوىٰ مثلها من القارة الأُوروبيَّة، ترمي إلىٰ غاية كهذه الغاية في زمانها، ونعني بها دعوىٰ الحروب الصَّليبيَّة.

ولقد مضىٰ اليوم علىٰ آخر الحملات الصَّليبيَّة نحو خمسة قرون، ولا يمكن أن يقال إنَّها اختفت من ميادين السِّياسة أَو الدِّعاية، ولا تزال لها رجعات تتردَّد طوعاً أَو كرهاً في تصريحات السَّاسة، وتعليقات المؤرِّخين، كما تتردَّد حيناً بعد حين في مساعي الجماعات والآحاد[١].

* * *

الاستعمار الثَّقافي: Imperialism Cultural:

وجه من أَوجه **الاستعمار الجديد** الَّذي لا يعتمد على التَّدخُّل العسكري المباشر، بل على السَّيطرة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والثَّقافيَّة، دون اللُّجوء إلىٰ القوَّة إلَّا في الورقة الأَخيرة حين تفلس الأَساليب الأُخرىٰ.

والاستعمار الثَّقافي في القرنَيْن الثَّامن عشر والتَّاسع عشر هو الَّذي مهَّد للاستعمار (الكلاسيكي) في البلاد العربيَّة، وخاصَّة في المشرق العربي، عن طريق الامتيازات الَّتي حصل عليها من الدَّولة العثمانيَّة، وعن طريق الامتيازات (الإرساليات الأَجنبيَّة) التَّبشيريَّة والتَّعليميَّة، وبالتَّالي تغذيته لكلِّ التَّناقضات الثَّانويَّة الكامنة في المجتمع، وتحويلها إلىٰ

(١) لا شيوعيَّة ولا استعمار، ص: ٨٣.

تناقضات رئيسيَّة، لتصبح الأَرضيَّة صالحة لتقبُّله واستبقائه أَطول مدَّة ممكنة.

إنَّ معظم الثَّقافة التي عرفتها شعوب العالم الثَّالث عن طريق المدارس والجامعات والإرساليات، منذ القرن التَّاسع عشر، كانت ثقافة أَجنبيَّة، وقد عملت تلك المؤسَّسات طوال تلك السِّنين علىٰ تربية شبان يحملون ثقافة ليس لها قيمة إلَّا في دورة الحياة المرتبطة بالدُّول المصدِّرة لتلك الثَّقافة.

والصِّفة الأَساسيَّة الَّتي تتمتَّع بها هذه الثَّقافة هي غربتها التَّامة عن واقع هؤلاء الشُّبان، وعن تراثهم الحضاري والثقافي الوطني، وعن حاجات بلادهم الملحَّة، وهي تشبه - من هذا المعنىٰ - الآلة الَّتي يبيعها الأَجنبي لشعوب العالم الثَّالث، إذ إنَّها مصنوعة بالدَّرجة الأُولىٰ لتلبِّي متطلَّبات الإنماء في بلده، وبالتَّالي فإنَّ هذه الشعوب لا تستطيع استعمالها إلَّا بتوجيهات بائعها وبخبراته، وبقطع الغيار الَّتي لا يصنعها غيره، وأَصعب ما يواجه محاولة فهم الثَّقافة المضادة (الاستعماريَّة) أَنَّها ثقافة، وأَقوىٰ ما يواجه محاولة التَّخلُّص منها أَنَّها بطبيعة الحال ثقافة متقدِّمة(١).

ويمكن تلخيص أَهم أَهداف الاستعمار الثَّقافي بالنُّقاط التَّالية:

١ - تكريس تبعيَّة نظم بلدان العالم الثَّالث الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة للدُّول الاستعماريَّة ونظمها.

---

(١) موسوعة السِّياسة: ١/١٧٥.

٢ ـ تغريب المواطن في هذه البلدان عن مشاكل شعبه، وخلق نموذج معيَّنٍ من المثقَّفين العاجزين عن فهم هذه المشاكل، وقيادة الثَّورة المضادة.

٣ ـ تكريس النُّخبويَّة الطَّبقيَّة، مع الحرص علىٰ اختيار نماذج من أبناء الطَّبقات الشَّعبيَّة، مساهمة في إخفاء الدَّور الحقيقي لمؤسَّسات الاستعمار الثَّقافي.

٤ ـ هجرة الأَدمغة.

وأَهمُّ مظاهر الاستعمار الثَّقافي تتلخَّص بالنُّقطتَيْن التَّاليتَيْن:

ـ تفوُّق مؤسسات الاستعمار الثَّقافي التَّعليميَّة علىٰ المؤسسَّات الوطنيَّة، وتشجيع النِّظام اللَّاوطني لها، ومحاربة تطوير الجامعات الوطنيَّة والتَّعليم الرَّسمي بشكل عام.

ـ وجود (مجتمعات خاصَّة)، أَو (قبائل ثقافيَّة) ضمن المجتمع الوطني، أَو القومي العام، تهدِّد وحدة هذا المجتمع نفسه ووجوده، فالإرساليات التَّبشيريَّة عملت دون أَيَّة رقابة أَو محاسبة.

* * *
* *
*

الـحروبُ الصَّليبيَّـةُ
[١٠٩٦ ـ ١٢٩١ م]

* «حارب الصَّليبيُّون شيئاً كان الأجدر بهم أن ينبطحوا بذلٍّ أمامه، حضارة يمكن لقرننا التَّاسع عشر أن يعتقد أنَّه فقير جدّاً ـ ومتأخِّر جدّاً ـ بالمقارنة معها».

[فردريك نيتشه]
عدوُّ المسيح، الفقرة ٦٠.

الوطن العربي قبيل الغزو الصَّليبي[١]:

كان الوطن العربي في القرن الحادي عشر الميلادي في غاية الضَّعف والتَّخاذل، نتيجة التَّجزئة والصِّراعات الدَّاخليَّة، تنافساً على السُّلطة والسِّيادة، ففي بغداد غدت الخلافة

---

(١) انظر: الحركة الصَّليبيَّة (صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطىٰ)، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة)، الطَّبعة الأولىٰ ١٩٦٣ م.
وماهِيَّة الحروب الصَّليبيَّة، د. قاسم عبده قاسم، العدد ١٤٩ من (عالم المعرفة).

العبَّاسيَّة هزيلة لا تستطيع إثبات وجودها حتَّىٰ في العاصمة، الَّتي أَصبح النُّفوذ فيها لآل بُوَيْه[١]، ثمَّ إلىٰ السَّلاجقة[٢] من بعدهم.

وفي مصر كانت الدَّولة الفاطميَّة[٣] تعاني من الثَّورات الدَّاخليَّة، وساءت أَوضاعها الاقتصاديَّة، ونزلت بها مجاعات وأَوبئة، وانفصلت عنها تونس، كما انتزع السَّلاجقة منها بلاد الشَّام الَّتي كانت خلال معظم العهد الفاطمي نهباً موزَّعاً بين عددٍ من الأمراء الطَّامعين في حكمها، وكذلك استمرت أَحوال بلاد الشَّام في عهد السَّلاجقة الَّذين انشغلوا بحروبهم مع الرُّوم، وأَهملوا الإدارة في بلاد الشَّام والعراق، وتركوها بيد أَتابِكَتِهم[٤] المتنازعين بدورهم على السُّلطة، فظهرت إمارات في الموصل وحلب ودمشق.

---

(١) البويهيُّون: أُسرة فارسيَّة من أَصل ديلمي، حكمت ٩٣٢ ـ ١٠٥٥ م، أَسَّسها أَبو شجاع بُوَيْه، استولىٰ البويهيُّون علىٰ بغداد سنة ٩٤٥ م فغدا الخليفة أُلعوبة في أَيدي البويهيين، إلىٰ أَن غلبهم طغرل بك السُّلطان السَّلجوقي ١٠٥٥ م.

(٢) السَّلجوقيُّون: أُمراء تركمانيُّون جدُّهم سلجوق، كان لهم عدة فروع في العراق وسوريَّة وبلاد الرُّوم.

(٣) الفاطميُّون: [٩٠٩ ـ ١١٧١ م] دولة قامت أَوَّل أَمرها في تونس، ثمَّ أخضعت الشَّمال الإفريقي، ثم مصر في عهد المعز لدين الله (٩٦٩ م) وأَنشأَ مدينة القاهرة، وبسط نفوذه علىٰ بلاد الشَّام.

(٤) أَتابك: اصطلاح تاريخي مشتق من لفظَيْن تركيَّيْن، هما: (آتا) بمعنىٰ أَب، و(بك) بمعنىٰ نبيل أَو شيخ، و(أَتابك) استخدمت =

أَمَّا بلاد الأَندلس فقد تجزَّأَت تحت حكم ملوك الطَّوائف تحرِّكهم أَطماعهم الشَّخصيَّة، وتكفينا عبارة (ملوك الطَّوائف) تسمية لتشير إِلىٰ حالات الضَّعف والتَّجزئة حتَّىٰ أَن بعضهم استنجد بملوك النَّصارى في أُوروبة ضد منافسيهم من أَبناء جلدتهم وعقيدتهم.

وفي المغرب ظهرت دولة المرابطين[1] الَّتي وحدَّت الشَّمال الإِفريقي من حدود ليبيا حالياً إِلىٰ السِّنغال وضمَّت إِليها بلاد الأَندلس.

وكان جزيرة صِقِلِّيَّة[2] أَوَّل جزء من الجناح الغربي من العالم الإِسلامي يتعرَّض لغزو الطَّامِعين نتيجة الضَّعف والتَّجزئة، وسقطت هذه الجزيرة بيد الغزاة النُّورمان[3] سنة

= إِبَّان العصر العباسي الثَّالث بمعنىٰ مربِّي الأَمير، وهو عادة ممَّن يمتُّون إِلىٰ السُّلطان بصلة القرابة من جهة الأَب، والأَتابكة من الدُّول التُّركيَّة الَّتي زاحمت السَّلاجقة، وأَقامت إِمارات مستقلة، [القاموس الإِسلامي: ١/ ١٨].

(١) المرابطون: لمتونيُّون من صنهاجة، أَسسوا دولة علىٰ يد يحيىٰ بن إِبراهيم الجدالي، أَشهر أُمرائها يوسف بن تاشفين، قضىٰ عليها الموحِّدون، دام المرابطون ما بين سنتي: ١٠٥٦، و١١٤٧ م.

(٢) صِقِلِّيَّةُ: من كبرىٰ جزر البحر المتوسِّط، جنوبي إِيطالية، من أَشهر مدنها: سيراكوزة، وبالرمو.

(٣) النُّورمان Normands هم (أَهل الشَّمال)، اسم أُطلق علىٰ الغزاة (الفايكنغ) القادمين من بحار إِسكندينافية، احتلُّوا بريطانية سنة ١٠٦٦ م.

١٠٩١ م، وكأنَّها فتحت بسقوطها وسقوط طليطلة[١]، قبل بضع سنين (١٠٨٥ م)، الأبواب أمام الغُزَاة الصَّليبيِّين المؤيَّدينِ من قِبَل البابا إلكسيوس الأوَّل، الَّذي قدَّم مكافأة لرُوجَر النُّورماندي[٢] على غزوه لِصِقِلِّيَّة الإسلاميَّة، فعيَّنه نائباً بابوياً علىٰ هذه الجزيرة.

* * *

أمَّا أحوال الغرب الأوروبِّي في الفترة ذاتها، وبواعث الغزوات الصَّليبيَّة ودوافعها وأسبابها:

يعتقد بعض المؤرِّخين الباحثين أنَّ الحركة الصَّليبيَّة حلقة من حلقات الصِّراع بين الشَّرق والغرب.

---

(١) طُلَيْطِلَة: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس، كانت قاعدة ملوك القوطيِّين، وهي علىٰ شاطىء نهر تَاجُه وعليه القنطرة الَّتي يعجز الواصف عن وصفها.. [معجم البلدان: ٤/٣٩]

(٢) روجَر أو روجار، اسم اثنين من ملوك صقلية النُّورمانديِّين، اتصلت سيرتهما بجلاء المسلمين عن صقلية ومالطة، ثمَّ بغزو تونس، وروجَر الثَّاني هو ابن روجَر الأوَّل من زوجته أدليد، ولد سنة ١٠٩٥ م، وخلف أباه سنة ١١٠١ م، وهو الَّذي شجع الإدريسي علىٰ تصنيف كتابه: (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، حاول الاشتراك في الحملة الصَّليبيَّة الثَّانية الَّتي أبحرت إلىٰ المشرق عام ١١٤٧ م، ولكن لويس السَّابع الفرنسي رفض التَّعاون معه خشية أطماعه التَّوسعيَّة، توفي سنة ١١٥٤ م فخلفه ابنه وليم الأوَّل، [القاموس الإسلامي: ٢/٥٨٧].

ورأىٰ آخرون أَنَّ وطأة الكنيسةِ كانت شديدة جدّاً علىٰ رعاياها في أُوروبة، فتطلَّع النَّاس إلىٰ حياة أَفضل خارجها، فكانت فكرة الحروب الصَّليبيَّة بالنِّسبة لهم: «**خلاصاً في الدُّنيا، وثواباً في الآخرة**».

ولقد كان سواد المجتمع الأُوروبِّي في بؤس وفقر، تستغلُّه طبقة الأَشراف وأُمراء الإقطاع، ويسود الجميع تعقُّبٌ أَبعدهم حتّىٰ عن حقيقة دينهم، فلم يعرفوا من المسيحيَّة إلَّا اسمها، وحملوا في نفوسهم أَحقاداً دفينة ضد الإسلام وأَهله، وقد رسَّخ رجال الكنيسة لديهم أَسوأ صورة عن المسلمين، ونلمح ذلك في خطبة البابا أُوربان الثَّاني(١)، عندما أَغرىٰ أَبناء رعيَّته بخيرات الشَّرق، حيث أَنهار اللَّبن، وسواقي العسل.

لقد أَخفقت الحملة الصَّليبيَّة، والَّتي عُرِفت (بحملة العامَّة)، أَو (الحملة الشَّعبيَّة)، علىٰ الرَّغم من حماسة بطرس النَّاسك(٢) وفصاحته، وهيئته الغريبة، حيث ثيابه المهلهلة

---

(١) أُوربان (أَو أُوربانُس)، بابا روما ما بين: [١٠٨٨ ـ ١٠٩٩ م]، وهو الَّذي نادىٰ بالحملة الصَّليبيَّة الأُولىٰ، أثناء المجلس الكنسي الَّذي عقده بمدينة (كليرمونت) عام ١٠٩٥ م.

(٢) بطرس النَّاسك: ولد حول عام ١٠٥٠ بمدينة إميان الفرنسيَّة، اشتهر ببراعته في استثارة العواطف فتبعه آلاف من الفلاحين يحملون الصَّليب لاستخلاص بيت المقدس من مسلمي الشَّرق العربي، وقاد بنفسه هذه الجموع وسار بهم علىٰ الأَقدام إلىٰ القسطنطينيَّة، ولكن سلوكها كان مشيناً لاعتمادها علىٰ السَّلب =

الرَّثَّة، وقدماه العاريتان، وحماره الأعرج، هذه الهيئة الَّتي جعلت منه شخصيَّة ذات تأثير خطير علىٰ جماهيَر العامَّة والدَّهماء في غربي أُوروبة، ففي تشرين الأوَّل (أكتوبر) سنة ١٠٩٦ م، كان أَوَّل اشتباك مع السَّلاجقة في آسية الصُّغرىٰ، حيث شتَّت الصَّليبيُّون، ولم ينج منهم سوىٰ ثلاثة آلاف رجل فقط من أَصل ٢٥,٠٠٠ رجل.

وعلىٰ إثر هذه النتيجة، بُعِثَت في أُوروبة فكرة تجريد حملة جديدة، فكانت الحملة الصَّليبيَّة الأُولىٰ (حملة الأمراء)، حيث برزت الرُّوح الإقطاعيَّة واضحة، إذ تولَّىٰ زعامتها عدد من الأمراء، لكلٍّ منهم اتِّجاهه وجنده وسياسته الخاصَّة.

وتمكَّنت هذه الحملة من تأسيس وإقامة أَربع إمارات في الشَّرق، هي:

١ ـ إمارة الرُّها.

٢ ـ وإِمارة أَنطاكية.

٣ ـ وإمارة طرابلس.

٤ ـ وإمارة بيت المقدس، الَّتي تأَسَّست يوم الجمعة ١٥ تموز (يوليو) ١٠٩٩ م.

= والنَّهب في الحصول علىٰ حاجاتها، فلما عبرت إلى الأناضول فتك بها السَّلاجقة الأتراك.. [القاموس الإسلامي: ١/ ٣٢٤].

لقد حاول (افتخار الدَّولة) ـ حاكم بيت المقدس من قبل الوزير الأفضل الفاطمي ـ الدِّفاع عن بيت المقدس، فسمَّم الآبار حولها، وقطع موارد الماء، وأخفىٰ المواشي، واهتمَّ بترميم التَّحصينات، وتأكَّد من سلامة الأسوار، ومنذ ٧ حزيران (يونيو) ١٠٩٩ م بدأ الصَّليبيُّون هجومهم علىٰ المدينة المقدَّسة، معتمدين علىٰ مجانيق قويَّة، وآلات الحصار، وأرهقهم حرُّ الصَّيف، فعملوا بُرْجَيْن أطلُّوا منهما على أسوار المدينة، وتمكنَّ المسلمون من إحراق البرج الأوَّل، وقُتِل من فيه، ولكن البرج الثَّاني استطاع أن يزحف به الصَّليبيُّون حتَّىٰ ألصقوه بالسُّور، وأتبعوه بهجوم شامل في ١٤ تموز (يوليو) ١٠٩٩ م، واستطاعوا يوم الجمعة ١٥ تموز (يوليو) اقتحام المدينة، بعد حصار دام قرابة واحد وأربعين يوماً، فاحتمىٰ الجند المسلمون بالمسجد الأقصىٰ، فتعقَّبهم الصَّليبيُّون، واقتحموا المسجد، مرتكبين بداخله مذبحة وحشيَّة رهيبة، مع أن تاريخنا العربي الإسلامي لم يشهد حادثة واحدة قُتِلَ بها مسيحي احتمىٰ بكنيسة!!.

واستطاع (تنكرد) الاستيلاء على قبَّة الصَّخرة، ونهب كلَّ التُّحف الثَّمينة الَّتي كانت تزيِّنها.

وتتابعت حلقات المجزرة عندما قتل الدُّخلاء الغرباء آلاف الأبرياء من المسلمين المدنيِّين بلا ذنب، فلم يتركوا طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً مسلماً في الطُّرقات أو في البيوت، أو حتَّىٰ في المساجد إلَّا واستباحوا دمه، ولم يرعوا حرمة الأماكن

المقدَّسة، فدخلوا المسجد الأَقصىٰ، ليجهزوا علىٰ كلِّ من لجأَ إِليه محتمياً، فبلغ عدد القتلىٰ المسلمين أَكثر من سبعين أَلفاً، منهم عدد من أَئمة المسلمين وعلمائهم وعبَّادهم وزهَّادهم.

والمؤرِّخ الصَّليبي (وليم الصُّوري) يذكر المذبحة الرَّهيبة، ويصفها بمخاضة واسعة من دماء المسلمين، تثير الاشمئزاز من الغزاة، فالتَّاريخ لن ينس مذبحة يوليو ١٠٩٩ م، والَّتي كانت لطخة عار في تاريخ الحملات الصَّليبيَّة عامَّة، والحملة الصَّليبيَّة الأُولىٰ خصوصاً، ولقد بقيت هذه الوحشيَّة تثير الأَسىٰ والحزن والإِلم في قلوب المسلمين ونفوسهم حتَّىٰ استطاع صلاح الدِّين الإِيوبي تحرير القدس يوم الجمعة ١٢ تشرين الأَوَّل (أكتوبر) سنة ١١٨٧ م، ثمَّ كان طردهم كليّاً من الأَرض العربية سنة ١٢٩١ م، علىٰ يد الأَشرف خليل بن قلاوون(١).

وانطلاقاً من سماحة الإِسلام المتمثِّلة في خُلُق صلاح الدِّين وعمله، ومقابل فدية بسيطة، سمح بخروج الصَّليبيِّين من القدس. وتسامح تجاه الفقراء الَّذين عجزوا عن دفع الضريبة، مع احترام الأَماكن المقدَّسة المسيحيَّة، أَمَّا اليتامىٰ

---

(١) الأَشرف خليل بن قلاوون الصَّالحي: [١٢٦٨ - ١٢٩٤ م]، من سلاطين مصر المماليك، استردَّ من الصَّليبيِّين كلَّ سواحل بلاد الشَّام، كان شجاعاً مهيباً عالي الهمة، جواداً، له آثار عمرانيَّة.. [الأَعلام: ٢/٣٢١].

والشُّيوخ والأَرامل من الصَّليبيِّين، فإنَّ صلاح الدِّين لم يكتف بإطلاق سراحهم دون فداء، بل منحهم مساعدات ماليَّة من ماله الخاص أيضاً.

صورتان متلازمتان في تاريخ البشريَّة:

ما أَسوأَ الأُولىٰ وأَقساها، وما أَروع الثَّانية وأَرحمها!!.

ما أَبشع وحشيَّة الأُولىٰ، وما أَجمل إنسانيَّة الثَّانية!!.

الصُّورة الأُولىٰ: صورة بيت المقدس حين استولىٰ عليه الصَّليبيُّون يوم الجمعة ١٥ تموز (يوليو) ١٠٩٩ م.

والصُّورة الثَّانية: صورة بيت المقدس حين حرَّره صلاح الدِّين يوم الجمعة ١٢ أُكتوبر (تشرين الأَوَّل) ١١٨٧ م.

جمعة حزينة، صاغ حزنها ووحشيتها الصَّليبيُّون الدُّخلاء.

وجمعة بهيجة مشرقة، حاكَ خيوطها الإنسانيَّة الرَّحيمة المسلمون بقيادة صلاح الدِّين الأَيوبي، لقد أَبت أَخلاقه أَن يردَّ علىٰ وحشيَّة الصَّليبيِّين بوحشيَّة مثلها، ولو فعل لعُذِرَ، ورفض قتل أَسرىٰ الصَّليبيِّين، ملقِّناً لهم درساً في تسامح الإسلام، وروحه الإنسانيَّة.

وبمناسبة مرور ٨٠٠ عام علىٰ ذكرىٰ تحرير بيت المقدس.

ومرورٍ ٧٠٠ عام علىٰ طرد آخر صليبي من بلاد الشَّام، نقول مذكِّرِينَ:

أوَّلاً: الحروبُ الصَّليبيَّة لم تنتهِ بعد، فحين دخل الجنرال اللنبي القدسَ سنة ١٩١٧ م ـ أثناء الحربَ العالميَّة الأُولىٰ ـ قال: الآن انتهت الحروبُ الصَّليبيَّة، وعندما دخل الجنرال غورو دمشق بعيد معركة ميسلون سنة ١٩٢٠ م، توجَّه إلىٰ ضريح صلاح الدِّين ليقول بتحدٍّ وشماتة: قم يا صلاحَ الدِّين، نحن هنا.

ثانياً: لقد اتخذت الحروبُ الصَّليبيَّة شكلاً آخر غير عسكري، ألا وهو الغزو الفكري، ولنا حديث عنه بعد صفحات.

* * *
* *
*

أَسبابُ الاستعمَارِ
والإِمبراطوريَّات الاستعماريَّـة
والتّنافس الاستعماري

أسباب الاستعمـار:

١ ـ حاجة الشُّعوب الأُوروبيَّة إِلىٰ التَّوابل (الأَبازير) الَّتي لا تنتجها القارة، وتمدُّها بها بلاد جنوب شرقي آسية عن (طريق الحرير) الَّتي تصل الصين بالبحر الأَسود وآسية الصُّغرىٰ وبلاد الشَّام، وعن (الطريق البحريَّة)، أَو (طريق التَّوابل) والتي تبدأ من موانىء الصين وتنتهي بمدينة الإِسكندرية، مارَّة بسيلان والبحر الأَحمر، أَو تنتهي بموانىء بلاد الشَّام على البحر المتوسط، ومنها إِلى الموانىء الإِيطاليَّة.

وكان همُّ الأُوروبيين العثور على طريق تؤدِّي مباشرة إِلى البلاد المنتجة للتَّوابل دون عبور البحر المتوسط، والوطن العربي، وبالتالي: إِغلاق الطَّريق علىٰ تجارة الهند وجنوب شرقي آسية، المار بالبلاد العربيَّة.

٢ ـ عانت أُوروبة الغربيَّة في أَواخر القرن الخامس عشر من أَزمة اقتصاديَّة بسبب نقص الذَّهب، لأَن موارد المناجم في أُوروبة لا تفي بالحاجة منه، لذلك قيل: «عطش أُوروبة

إِلىٰ الذَّهب أَكثر من جوعها إِلىٰ التَّوابل»، وقد شاع في أُوروبة أَنَّ الهند وجنوب شرقي آسية بلدان غنيَّة، موفورة الغنىٰ، وأَن الوصول إِليها مباشرة من غير طريق العرب يؤدِّي إِلىٰ الحصول علىٰ الذَّهب والتَّوابل معاً[1].

٣ ـ زحام السُّكان في القارة الأُوروبيَّة بسبب ازدياد عدد السُّكان، ونزوعهم إِلىٰ الهجرة والتَّعمير في البلاد النَّائية، ويصدق هذا السَّبب علىٰ المهاجرين إِلىٰ القارة الأَمريكية، سواء كانوا من البريطانيين والهولنديين، أَو من الإِسبان والبرتغاليين، ولم تلبث هجرتهم أَن تحوَّلت إِلىٰ إِقامة دائمة، فاتَّخذوا من مقامهم الجديد وطناً يملكونه دون أَبنائه الأَصلاء، ودون الوافدين إِليه علىٰ السَّواء[2].

٤ ـ البحث عن أَسواق لتصريف المنتجات الأُوروبيَّة المصنَّعة، مع كسب مناجم المواد الإِولية الرَّخيصة وامتلاكها لتشغيل المصانع الأُوروبيَّة، وإِعادة الجزء الأَكبر من إِنتاج هذه المصانع إِلىٰ أَسواق المستعمرات وبيعها بأَسعار مرتفعة، بغية تحقيق الرِّبح المادي (الفاحش والسَّريع).

٥ ـ بواعث نفسيَّة تتلاقىٰ في الدِّين والعنصر، (رسالة الرَّجل الأَبيض) المزعومة، والَّتي ادَّعت «الأَمانة علىٰ حكم الدُّنيا» وتحضيرها!!.

---

(١) تاريخ العصور الحديثة، ص: ٥٩.
(٢) لا شيوعيَّة ولا استعمار، ص: ٩٤.

وهكذا. . أبحرت السُّفن الأُوروبيَّة ناشرة أَشرعتها، تحمل إلىٰ الشُّعوبِ الإفريقية والآسيويَّـة والأمريكيـة جماعـة من الرُّهبان، يبشِّرون بالعهد الجديد، ويعودون منها بكنوزها من الـذَّهب والعاج والتَّـوابل. . «ثمَّ أَمعن البـابـا في الكـرم والسَّخاء، فأَحلَّ من الأوزار والخطايا أرواحَ من يلقون حتفهم في تلك المغامرات من أعـوانه ـ أعـوان هنري المـلاح ـ وأجنـاده»[1]، معطيـاً الاستعمار طـابع الحـروب الصَّليبيَّـة الصَّريح.

ساعد علىٰ نجاح الاستعمار: التَّقدُّم العـلمي والنَّهضة الَّتي سببها العلوم العربيَّة الإسلاميَّة، خصوصاً تقدُّم المعارف الجغرافيَّة.

إن احتكاك الأُوروبيِّين بالحضارة الإسلامية في الأَندلس وصِقِلِّيَّة وجنوبي إيطالية، أَفادهم ـ من جملة ما أَفادهم ـ من تجارب العرب في الملاحة، واطَّلعوا علىٰ جهود العلماء العرب في الجغرافية، من حيث رسم المصوَّرات، واستخدام البوصلة في معرفة الجهات والاتجاه ليلاً، والإسطـرلاب لتعيين الموقع الجغرافي بواسطة النُّجوم، وانتشار فكرة كروية الأرض في مؤلَّفات العلماء المسلمين.

وساعد علىٰ نجاح الاستعمار في خطواته الأُولىٰ: تقدُّم صناعة السُّفن وأدوات الملاحة أَيضاً.

---

(١) في طلب التَّوابل، ص: ١٠٦.

كُلُّ ذلك ساعد علىٰ المغامرة في اقتحام خطر البحار والمحيطات، وكشف العالم المجهول آنذاك.

* * *

الإمبراطوريَّاتُ الاستعماريَّةُ:

١ ـ **الإمبراطوريَّة البرتغاليَّة**: بدأَ البرتغاليُّون بالكشوف وتأسيس إمبراطوريَّة استعماريَّة، فاستعمروا: جزيرة ماديرة، والجزر الخالدات (آزور)، وجزر الرَّأس الأَخضر، وشواطيء إفريقية الغربيَّة والجنوبيَّة والشَّرقيَّة كلها تقريباً، واحتلُّوا سواحل شبه الجزيرة العربيَّة، واستقرُّوا في قاليقوت [١] وغُوا علىٰ شاطىء الهند الغربي، وأَصبحت غُوا عاصمة (الهند البرتغاليَّة).

واندفع البرتغاليُّون إلىٰ مالاقا وجزر الصُّوند [٢] ونفذوا إلىٰ جزر المولوك والفيليبين، واستولوا على سيلان، وماكاو علىٰ شاطىء الصِّين الجنوبي.

واتَّخذ البرتغاليُّون موطىء قدم في البرازيل أَيضاً.

٢ ـ **الإمبراطوريَّة الإسبانيَّة**: اندفع الإسبان إلىٰ القارة الأَمريكيَّة، فاستعمروا المكسيك، وبيرو، وصعدوا حتَّىٰ أَمريكة الشَّماليَّة، إلىٰ كاليفورنية، وفلوريدة.

---

(١) قاليقوت: مدينة علىٰ ساحل الهند الغربي.
(٢) جزر الصُّوند: جزر الهند الشَّرقيَّة، أَو أَندونيسية حالياً.

فرضت إسبانية نظام الحصر المطلق في التِّجارة مع مستعمراتها، خصوصاً عندما بدأ استغلال مناجم الذَّهب في جزر الأنتيل والمكسيك، ومناجم (بوتوزي) في بيرو، وهي أشبه ما تكون بجبل من الفضَّة، ومن هنا تدفَّقت الثَّروة علىٰ إسبانية، وبدأ التَّبشير أيضاً.

لقد كان الاستعماران البرتغالي والإسباني مصحوبان بالإرهاق والشِّدة والقسوة والوحشيَّة، لأنَّ المستعمرين كانوا يطلبون من السُّكان المستعمَرين فوق طاقتهم البشريَّة والماديَّة، حتَّىٰ أضناهم العمل، وفتكت بهم الأمراض والأوبئة، وبسبب هذه المعاملة الفظَّة، قلَّت اليدُ العاملة، حتَّىٰ خَلَت مناطق كثيرة من السُّكان، واضطر المستعمِرون إلىٰ (استيراد) زنوج إفريقية للعمل في الحقول والمناجم، ونشأَت عن ذلك تجارة الرَّقيق[١].

٣ ـ **الإمبراطوريَّة الهولنديَّة**: كانت هولندة جزءاً من الإمبراطوريَّة الجرمانيَّة المقدَّسة، وعندما تمَّ تأسيس الإمبراطوريتين البرتغاليَّة والإسبانيَّة وتدفَّقت الثروات علىٰ أُوروبة، لعب الهولنديُّون دور الوسيط وجَنَوا من وراء ذلك أَرباحاً طائلة، واستطاع الهولنديون أن يفيدوا من ضعف البرتغال وإسبانية ويقووا نشاطهم البحري، ويؤسِّسوا إمبراطوريَّة استعماريَّة ضمَّت: جزر الصُّوند، وجزيرة سيلان،

---

(١) تاريخ العصور الحديثة، ص: ٧٠

وراس الرجاء الصَّالح، وبعض جزر الأَنتيل، وجـزراً من شواطئ غويانة في أَمريكة الجنوبية، وعدداً من المراكـز التجاريَّة في الهند.

٤ ـ **الإِمبـراطـوريَّـة البـريـطانيَّـة**: وضمَّت جـزراً في الأَنتيل[١]، وثلاث عشرة مستعمرة في أَمريكة الشَّمـاليَّة، ومراكز في الهند مثل: مَدْراس، وبومباي، وكلكتا.

٥ ـ **الإِمبراطوريَّة الفرنسيَّة**: وضمَّت جزراً في الأَنتيل[٢] أَيضاً، وكندة ومنطقة البحيـرات الكبرىٰ ولـويزيـانة، وفي المحيط الهندي جزيرتي: موريس وريئنيون، ومراكـز في الهند مثل: شاندر ناغور، وبونديشيري.

* * *

الـتَّنافُسُ الاستِعْمَارِيُّ:

التَّنافس الإِنكليزي ـ البرتغالي: استعمر البرتغاليُّون منطقة الخليج، واتَّخذوا جزيرة هرمز مركزاً لقيادتهم، وفي أَواخر القرن السَّادس عشر تسلَّل النفوذ الإِنكليزي إِلىٰ المنطقة العربيَّة، وواتىٰ الإِنكليزَ الحظُّ عندما أُصبحت البرتغال جزءاً من الدَّولة الإِسبانيَّة في الفترة الواقعة بين ١٥٨٠ و ١٦٤٠ م ممَّا أَدَّىٰ إِلىٰ تقلُّص نفوذ البرتغاليين في الشَّرق، وضعف

---

(١) أَهمُّها: باربادو وجامايكة.

(٢) أَهمُّها: مارتينيك، غواديلوب، وسانت دومينيك.

مراكزهم، وفي سنة ١٦٢٢ م حدث الاشتباك الحاسم المسلَّح، فسيطر الإنكليز علىٰ منطقة الخليج.

التّنافس الإنكليزي ـ الهولندي: ومنذ أواسط القرن السّابع عشر بدأ انتقال السِّيادة في مياه المحيط الهندي من البرتغاليِّين إلىٰ الهولنديِّين، ولذا كان التّنافس بين الإنكليز والهولنديِّين أمراً لا مفرَّ منه، خصوصاً بعد سيطرة الهولنديِّين علىٰ أسواق إيران وسواحل الخليج العربي، ولم يبق للتِّجارة الإنكليزيَّة مجال يذكر في تلك الأسواق، ولكن هذا النُّفوذ الهولندي لم يدم أكثر من عشرين عاماً: [١٦٥٠ ـ ١٦٧٠ م]، لأنَّ الحوادث السِّياسيَّة في أوروبة أخذت طوراً جديداً، وأدَّت إلىٰ انتقال النُّفوذ الاستعماري في الشَّرق من هولندة إلىٰ إنكلترا، لقد اجتاح ملك فرنسة لويس الرَّابع عشر هولندة سنة ١٦٧٢ م فضعف وضعها، ولم تعد قادرة علىٰ منافسة إنكلترة في ميدان التِّجارة والمستعمرات، فتراجع الهولنديون أمام منافسة الإنكليز في أرجاء الخليج[١].

التّنافس الإنكليزي ـ الفرنسي: بلغ التّنافس بين فرنسة وإنكلترة علىٰ المستعمرات مراحله الحاسمة في حرب سبع السّنوات: [١٧٥٦ ـ ١٧٦٣ م]، الّتي انتهت بمعاهدة باريس سنة ١٧٦٣ م، وفيها تنازلت فرنسة لإنكلترة عن كلّ مستعمراتها تقريباً في كندة والولايات المتّحدة، وبعض جزر

---

(١) تاريخ العصور الحديثة، ص: ٧٩ و ٨٠.

الهند الغربيَّة والهند، ولم يبق لها سوىٰ بعض المراكز التِّجاريَّة سمحت بها إنكلترة علىٰ ألَّا تكون محصَّنة.

وعندما قامت الثَّورة الفرنسيَّة سنة ١٧٨٩ م، أرادت فرنسة أن تعوِّض ما فقدته من المستعمرات، وقرَّرت أن تغزو مصر مفتاح الشَّرق، لتسد الطَّريق البرِّيَّة إلىٰ دُرَّة التَّاج البريطاني (الهند) في وجه إنكلترة، ونزلت الحملة الفرنسيَّة ميناء الإسكندريَّة بقيادة نابليون بونابرت في تموز ١٧٩٨ م، وبعد أن استقر أمرها في مصر، توجَّهت لغزو بلاد الشَّام في شباط ١٧٩٩ م، ولكنها بعد احتلال غزَّة ويافا، عجزت عن فتح عكَّا، فعادت إلىٰ القاهرة خائبة، لتتضافر جهود أبناء البلاد والدَّولة العثمانيَّة وإنكلترة علىٰ إخراج الفرنسيين من مصر في أيلول ١٨٠١ م، وحازت إنكلترة نصراً كبيراً علىٰ فرنسة، وإن لم يكن حاسماً.

* * *

مِنْ صُوَرِ الاستعمار الَّتي لازَمَتْهُ: إلىٰ جانب القوَّة العسكرية:

١ ـ استيراد الزُّنوج وشراؤهم من القارة الإفريقيَّة، بل اختطافهم بأعداد هائلة (٢٠ مليوناً)، وترحيلهم إلىٰ أمريكة وأوروبة للعمل في الأعمال القاسية، كالمناجم والمزارع الكبيرة.

٢ ـ إبادة السُّكان الأصليِّين في بعض المناطق: كأمريكة وأسترالية، أو تشريدهم كما فعل اليهود في فلسطين.

٣ ـ سيطرة العنصريَّة والتَّمييز العنصري في أَمريكة وروديسية وجنوب إفريقية، أَو التَّمييز الدِّيني كما في فلسطين المحتلَّة.

٤ ـ تطاحن الدُّول المستعمِرَة فيما بينها طمعاً علىٰ خيرات الشُّعوب، كما حدث بين إسبانية والبرتغال، والإنكليز والفرنسيِّين، والإنكليز والبرتغاليِّين، والإنكليز والهولنديِّين..

٥ ـ ابتزاز خيرات الشُّعوب وخاصَّة المواد الأَوَّليَّة، وإقامة صرح الصِّناعة في أُوروبة وأَمريكة بفضل خيرات المستعمرات ومنتجاتها.

٦ ـ إفقار البلاد الزِّراعيَّة وإبقاؤها زراعية متخلِّفة، وربطها بقروض باهظة مشروطة، تعجز عن سدادها.

٧ ـ تطوُّر الاستعمار ووصوله إلىٰ مرحلة (الإمبريالية) الَّتي هي استعمار اقتصادي ثقافي يتجلَّىٰ في الاحتكارات، وتوظيف رؤوس الأَموال الأَجنبيَّة لصالح المستعمِر، والضَّغط الاقتصادي.. وسيطرة أَجهزة إعلامه المتقدِّمة[١].

* * *

أَمَّا آثارُ الاستعمارِ ونتائِجُه فهي:

١ ـ التَّجزئة واغتصاب الأَراضي.

٢ ـ التَّخلُّف الاقتصادي في البلاد المستعمَرَة.

---

(١) الإسلام في قفص الاتهام، ص: ١٦٩ و ١٧٠.

٣ ـ إبقاء البلدان المستعمرة معتمدة علىٰ وسائل الإنتاج البدائيَّة، الزِّراعة فقط.

٤ ـ التَّدخُّل في العلاقات الاقتصاديَّة، وإقامة الحواجز الاقتصاديَّة، كالاحتكارات والمضاربة.

٥ ـ انخفاض مستوىٰ المعيشة في البلاد المستعمَرَة، والرَّفاهية والبذخ في البلاد المستعمِرَة.

٦ ـ تأَخُّر الصَّحة، وعجز الخدمات الصحيَّة في البلاد المستعمَرَة.

٧ ـ انتشار الجهل والأُميَّة وقصور التَّعليم في البلاد المستعمَرَة.

٨ ـ افتقار البلاد المستعمَرَة إلىٰ الفنِّيين والاقتصاديِّين والعلماء لإعاقة النُّمو الاقتصادي وتطوُّره إلىٰ الأفضل.

٩ ـ انتشار مشكلة الرَّقيق في أُوروبة وأَمريكة.

١٠ ـ بقاء دول عنصريَّة إلىٰ يومنا هذا، يسيطر فيها العنصر الأَبيض القليل عَدَداً علىٰ الكثرة السَّاحقة من السُّود، كما في دولتي روديسية وجنوب إفريقية.

فهل نستطيع استناداً لتعريف الإستعمار، ونتائجه وآثاره، أَن نُسَمِّيَ الفتح الإسلامي استعماراً؟!؟.

* * *

سَمَاحَةُ الإِسلَام
وَسَمَاجَةُ الاستِعْمَار

يمكن القول بكلٍّ تأكيد ـ بعد التَّمعُّن بنتائج الاستعمار وآثاره ـ إنَّ الإسلامَ تحريرٌ، ولم يكن استعماراً قط، لما يلي :

١" ـ الاستعمار روَّج لتجارة الرَّقيق، خطفاً وقنصاً وشراء، وبأعداد كبيرة جداً، وتاريخ النَّخاسة الأُوروبي مُشِين جداً، جاء في دائرة المعارف البريطانية: ٢/٧٧٩ تحت مادة (SLAVERY): «إنَّ اصطياد الرَّقيق من قراهم المحاطة بالأدغال، كان يتم بإيقاد النَّار في الهشيم الَّذي صُنِعت منه الحظائر المحيطة بالقُرَىٰ، حتَّىٰ إذا نَفَرَ أَهلُ القرية إلىٰ الخلاء، تَصَيَّدهم الإنكليز بما أَعدُّوا لهم من الوسائل»، وكان قسم منهم يموت أَثناء القنص الآدمي في الرِّحلة إلىٰ الشَّاطىء الَّذي ترسو عليه مراكب الشَّركة الإنكليزيَّة وغيرها، وكان ثلث الباقين يموت بسبب تغيُّر المناخ، ويموت في أَثناء الشَّحن حوالي ٤,٥ ٪ و١٢ ٪ خلال الرِّحلة، أَمَّا مَنْ كانوا بموتون في المستعمرات فلا حصر لهم، فإنَّ مستعمرة (جامايكا) البريطانيَّة وحدها قد دخلها سنة ١٨٢٠ م ما لا يقل عن ثمانمائة أَلف رقيق، ولم يبق في تلك السَّنة منهم سوىٰ ثلاث مئة وأَربعين أَلفاً.

لقد كانت نسبة القنص الآدمي واحد إلىٰ ثمانية، أَي : كي يتمكَّن الأُوروبي من استرقاق عبد واحد، يُقْتَل ثمانية لكونهم يدافعون عن أَنفسهم في مهدهم الأَوَّل.

وكانت الملكة (أَليزابيت الأُولىٰ: ١٥٥٨ - ١٦٠٣ م) تشارك في الاتّجار بالرَّقيق، وكانت شريكة (لجون هوكنز) أَعظم نخَّاس في التَّاريخ، وقد رفعته إِلىٰ مرتبة النُّبلاء إِعجاباً ببطولته.

ومن المفارقات الطَّريفة: أَنَّ السَّفينة الَّتي أَعدَّتها لجون هوكنز، كانت تسمَّى (يسوع)، وكان عدد السُّفن المخصَّصة للاتّجار بالرَّقيق ١٩٢ سفينة، تتَّسِع حمولتها في الرِّحلة الواحدة ٤٧,١٤٦ رقيقاً[١]!؟!.

وجاء الإِسلام محرِّراً للرَّقيق، وليس في القرآن الكريم آية واحدة تحثُّ على الرِّقِّ أَو تحضُّ عليه، وكذلك الحديث الشَّريف!!

«ونحن نحبُّ أَن نلخِّصَ ما صنعه الإِسلام في هذه المسأَلة قبل أَربعة عشر قرناً في بضع كلمات: إِنَّه حرَّم الرِّقَّ جميعاً، ولم يبح منه إِلاَّ ما هو مباح إِلىٰ يومنا هذا، وفحوىٰ ذلك أَنَّه قد صنع خير ما يطلب منه أَن يصنع، وأَنَّ الأُمم الإِنسانيَّة لم تأتِ بجديد في هذه المسأَلة بعد الَّذي تقدَّم به الإِسلام قبل أَلف ونيف، وأَربعمائة عام»[٢].

---

(١) حقوق الإِنسان، ص: ١٢٧.

(٢) حقائق الإِسلام وأَباطيل خصومه، ص: ٢١٨ و ٢١٩، وفي طلب التَّوابل، ص: ١٠٤، كانت أَوَّل شحنة من الرَّقيق سنة ١٤٤٤ م، قوامها ٢٥٣ رقيقاً، وَ «القلب يتفطَّر من الخزي للمناظر البشعة الَّتي تُمثَّل علىٰ مسرح الأَلم والحسرة، من تمزيق شمل الأُسرة، وفصل =

ولم يلغِ الإسلامُ الرِّقَّ بطريق مباشر، إلَّا أنَّه ألغاه بخطى ثابتة مدروسة وعمليَّة، ولم يبقِ منه إلَّا أسير الحرب كمعاملته بالمِثْل. وهو بذلك ضيَّق موارده ومدخله، وأفسح مصارفه ومخرجه، ويمكن القول إنَّه سدَّ منابع الرِّق، ووسَّع مصارف العتق.

لقد جاء الإسلام، فرأىٰ وضعاً راهناً للرِّقِّ والرَّقيق، وضع خطَّة لإلغائه، إذ لم يجعل له مصدراً إلَّا الحرب المشروعة كمعاملته بالمثل، وحدَّد مصير الأسرى بأحد أمرَيْن اثنَيْن. [المَنُّ أو الفِدَاء]، وصنيع الإسلام الَّذي أوجبه قبل خمسة عشر قرناً هو غاية ما تستطيعه دول العالم اليوم في إنصاف أسراها وأسرىٰ أعدائها، فأمَّا أن يكون لها صنيع أكرم منه فلا ندري كيف يكون[1].

في أقل من خمسين سنة نقل النَّخاسون الغربيُّون جموعاً من العبيد السُّود يبلغ عدد الباقين من ذرِّيتهم ـ بعد القتل والاضطهاد ـ نحو خمسة عشر مليوناً في الأمريكتَيْن، وهذا عدد يضارع خمسة أضعاف ضحايا النَّخاسة في القارات

= أفرادها الواحد عن الآخر، يُكتب في تفجُّع بقلم الواقف علىٰ أسرار النَّفس البشريَّة، وما يختلج فيها من شعور الكَمَد، وهو لم يزل في طور طفولة الزَّمن، ولكنه يسرح النَّظر فيما وراء العذاب الوقتي إلىٰ الخلاص الأبدي الَّذي أصبح لأولئك الَّذين سماهم (بأبناء آدم السُّود)»

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص: ٢٢٢.

الثَّلاث منذ أكثر من أَلف سنة، وهو فارق جسيم بحساب الأَرقاء يكفي للإبانة عن الهاوية السَّحيقة في التَّجربة العمليَّة بين النَّخاستَيْن..

لذلك يقول المرحوم العقَّاد: «لقد ظلَّ صوت الإسلام يزمجر حتَّى استجاب له العالم بعد عدة قرون من تشريعه الحكيم، وإن زوال الرِّق هو أَحد الهدايا الَّتي قدَّمها الإسلام للإنسانيَّة»(١).

٢"- عرف الاستعمار إبادة السُّكان الأَصليِّين، كما في أَمريكة وأُستراليا، ولم يعرف الإسلام إبادة الشُّعوب، فوصيَّة أَبي بكر الصِّدِّيق خير شاهد يمكن الرُّجوع إليه: «.. ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة..»(٢).

٣"- وعرف الاستعمار العنصريَّة والتَّمييز العنصري، وحدَّد الإسلام موقفه منهما بقول رسول الله ﷺ: لا فرق بين عربيٍّ وأَعجميٍّ، ولا بين أَبيض وأَسود إلَّا بالتَّقوىٰ»، ورفع الإسلام بلالاً فوق الكعبة ليعلن على الملأ: الله أكبر، وجعل سلمان الفارسي من آل البيت.

٤"- أَمَّا ابتزاز خيرات الشُّعوب الَّذي عُرِفَ به الاستعمار، فالإسلام عُرِفَ بتخليص سكان البلاد المحرَّرة من الضَّرائب الباهظة الَّتي كانت مفروضة من قِبَل الفُرس والرُّوم، وما يدفعه غير المسلم في دولة الإسلام مبلغ لا يُذكر مقابل

(١) ما يقال عن الإسلام، ص: ١٩٤.
(٢) الطبري: ٣/٢٢٦، الكامل في التَّاريخ: ٢/٢٢٧.

الخدمات الَّتي يستفيد منها، ويدفع المسلم أضعاف ما يدفع غير المسلم.

أَلم يقل عمر بن عبد العزيز مخاطباً ولاته: «إِنَّ الله أَرسل محمَّداً هادياً، ولم يرسله جابياً»؟.

ومن الشَّهادات المنصِفَة:

قول (دريبر): «إن المسلمين ما كانوا يتقاضون من مقهوريهم إلَّا شيئاً ضئيلاً من المال، لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنية»[1].

وقال مونتسكيو في كتابه (روح الشَّرائع): «إِنَّ هذه الأَتاوات المفروضة كانت سبباً لهذه السُّهولة الغريبة الَّتي صادفها المسلمون في فتوحاتهم، فالشُّعوب رأَت، بدل أَن تخضع لسلسلة لا تنتهي من المغارم الَّتي تخيلَّها حرص الأَباطرة، أَن تخضع لأَداء جزية خفيفة، يمكن توفيتها بسهولة، وتسلمها بسهولة كذلك».

وتقول المستشرقة الإيطاليَّة لورافيشيا فاغليري: «ادفعوا جزية يسيرة تُسْبَغ عليكم حماية كاملة»[2].

ويقول غوستاف لوبون: «جزية زهيدة تقل عمَّا كانت تدفعه إِلىٰ سادتها السَّابقين من ضرائب»[3].

---

(١) روح الدِّين الإسلامي، ص: ٣٩٢.
(٢) دفاع عن الإسلام، ص: ٥٢.
(٣) حضارة العرب، ص: ١٣٤.

٥" - انتشر الفقر والجهل والمرض في البلاد المستعمَرَة.

وعمَّ الرَّفاه البلاد الَّتي حرَّرها المسلمون، لاستتباب الأَمن فيها، كما حدث في وادي النِّيل وسواد العراق، وأَصبح المحـرِّر الفاتـح المسلم أَحب إلىٰ الشُّعوب من الحـاكم السَّابق، لأَنَّهم رأَوا عمليّاً خير الإِسلام المحرِّر وفائدته.

كما عمَّت نهضة عمليَّة وطبِّيَّة، وكثرت (البيمار ستانات: المشافي)، والتَّرجمـات وإِحياء الكتب القـديمة على يـد المسلمين ويد سكان البلاد المحرَّرة معاً، فقد كان العِلْمُ للجميع، حتىٰ أنَّ أَشهر العلماء في كلِّ الميادين كانوا من سكان البلاد المفتوحة، مثل:

ابن سينا الَّذي وُلِدَ في (أَفشنة) من قرىٰ بخارىٰ.

وأَبي بكر الرَّازي المولود في الرَّي.

والإِمام البخاري المنسوب إلىٰ مدينة بخارىٰ.

وأَبي ريحان البيروني، الَّذي موطنه خوارزم.

ومحمد بن موسىٰ الخوارزمي، الرِّياضي الشَّهير.

وأَبي الوفاء البوزنجاني، المولود في فارس.

والمؤرخ الكبير الطَّبري، والجغرافي الشَّهير ابن خرداذبة، والشَّهرستـاني صـاحب (الملل والنِّحَـل)، وأَبي حنيفـة الدينوري.. كلهم علماء خلَّدهم التَّاريخ أَرهاطاً في ميادين العلوم بأَنواعها.

فهل خدم هؤلاء الحضارة الإسلاميَّة عن إكراه وإجبار؟ أمْ عن قناعة وإعجاب؟ ثمَّ عن تعلُّق واقتداء؟.

وهل نشر الإسلامُ مع الإيمان بالله علماً أَمْ جهلاً؟ نوراً أمْ ظلاماً؟ عافية أَمْ مرضاً؟ رخاءً أَمْ فقراً؟.. الاستعمار جهل، والإسلام عِلْم، فكيف يجتمعان؟ والاستعمار خراب (واستدمار)، والإسلام إعمار وبناء، فكيف يلتقيان[1]؟.

٦" ـ الاستعمار سَحْقٌ، وإبادة..

كان النَّشيد الَّذي ردَّده الجيش الإيطالي الَّذي غزا ليبيا سنة ١٩١١ م، التَّالي:

«يا أُمَّاه أَتمِّي صلاتك ولا تبكي، بل اضحكي وتأَمَّلي، أَلا تعلمينَ أَنَّ إيطالية تدعوني، وأَنا ذاهبٌ إلىٰ طرابلس فَرِحاً مسروراً، لأَبذل دمي في سبيل سحق الأُمَّة الملعونة، ولأُحارب الديانة الإسلاميَّة، سأُقاتل بكلِّ قوَّتي لمحو القرآن، وإن لم أَرجع فلا تبكِ علىٰ ولدك، وإن سأَلك أَخي عن عدم حزنك عليَّ فأَجيبيه: إنَّه مات في محاربة الإسلام»[2].

ـ «**سحق الأُمَّة الملعونة**»، هذا منهج الاستعمار، أَمَّا منهج الإسلام، فلا سحق حتَّىٰ لحكام الشُّعوب عند التَّحرير، بل أَراد هداية لكلِّ النَّاس، هنا في النَّشيد (سحق)، والإسلام (حياة) للشُّعوب الَّتي فُتِحت بلادها.

---

(١) الإسلام في قفص الاتهام، ص: ١٧٢.

(٢) قادة الغرب يقولون: دمِّروا الإسلام أبيدوا أهله، الطَّبعة التَّاسعة =

ـ «محو القرآن والإسلام»، هذا منهج الاستعمار، أَمَّا منهج الإسلام: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً﴾، [آل عمران: ٣/٦٤].

فالإسلام دعوة للخير، والاستعمار سحق ومحو للإنسان، ولن يلتقيا.

وهذه شهادة منصِفَة من مُبَشِّر في إفريقية ذكرها في كتابه: (الإسلام في إفريقية الشَّرقيَّة)، وصاحب الكتاب هو المبشِّر: (ليندن هاديس)، فقد قرَّر المؤلِّف بعد النَّظر إِلىٰ الفارق الكبير بين أَثر العرب المسلمين، وأَثَر الأوروبيين في إفريقية، أَن البرتغاليِّين قضوا فيها نحو مئتي سنة، لم يتركوا بعدها أَثراً من آثار الحضارة النَّافعة، ولم يعقبوا بعدهم غير ذكرىٰ الخراب الَّذي حلَّ علىٰ أَيديهم بالمعاهد والمعابد الإسلاميَّة(١)، ولم يزالوا حيثما نزلوا يخرِّبون وينهبون، أَمَّا العرب الَّذين انتقلوا إِلىٰ السَّواحل، فإِنَّهم نقلوا إِليها الكتابة

= ١٩٧٩ م، ص ١١، عن: القوميَّة والغزو الفكري: ٢٠٨.

(١) وهذا ما فعلته فرنسة في الجزائر وحوض النيجر، وما فعلته بريطانية في الهند ومصر، حتىٰ بلغت نسبة الأُميَّة في مصر ٩٥٪ بين الذكور، و ٩٩٪ بين الإناث، ناهيك عن الفقر والمرض والجهل، ولتفاصيل معاملة بريطانية للسُّكان في مصر، انظر أَحداث (دِنْشَوَاي) التي نشرتها في مجلة كلِّيَّة الدَّعوة الإسلاميَّة، العدد السادس، ص: ٢٩٩ وما بعدها.

والعمارة وأَدوات الحضارة، وطبعوها بطابعهم في كثير من أَحوال المعيشة.

وليس ما حدث من الدَّمار إِنَّما حلَّ في إِفريقية فحسب، بل لننظر إِلىٰ مناظر مؤسفة أُخرىٰ:

ـ ماذا فعل (رعاة البقر) بشعب أَمريكة الأَصلي ـ الهنود الحمر ـ؟ الجواب: إِبادة شبه كاملة.

ـ وماذا فعلت فرنسة في الجزائر؟ الجواب: مليون شهيد، وسياسة الأَرض المحروقة علىٰ يد (بوجو)، وإِفقار وتجهيل.

ـ وماذ عملت بريطانية في أُسترالية؟ الجواب: إِبادة واستعمار استيطاني، وفي إِفريقية تمييز عنصري.

ـ وماذا عملت إِسبانية والبرتغال في سكان أَمريكة الجنوبية والوسطىٰ؟ الجواب: انتهاء حضارة الأَنكا والمايا والآزتيك، وإِبادة كاملة، وسفن أُسبوعيَّة في قوافل مستمرة لنقل الذَّهب والفضَّة إِلىٰ إِسبانية والبرتغال.

ـ وماذا عملت هولندة في أَندونيسية؟ الجواب: امتصاص خيرات وإِرهاق الشَّعب وإِذلاله حتَّىٰ إِذا أَراد الجندي الهولندي أَن يعلو ظهر جواده، أَشار إِلىٰ أَندونيسي فيركع أَمام الهولندي بإِزاء جواده، فيدوس الهولندي بحذائه العسكري علىٰ ظهر الأَندونيسي ليعلو جواده!!.

ـ وماذا فعلت بريطانية في مصر والهند؟.

في مصر: خنقت الصِّناعة المصريَّة الَّتي أَقامها محمد علي باشا، وأَصبحت مصر مع مطلع القرن العشرين تستورد الحبوب والدَّقيق، وتقلَّصت مزارع قصب السُّكر والكتَّان، واستخدمت معاملُ السَّكاكر الخامات المستوردة.

كتب الاقتصادي الإنكليزي (هـ. ن. برايلسُفورد) سنة ١٩٠٨م في أَمر مصر يقول: «ولم يكن إِذ ذاك قانون للمعامل والعمَّال في مصر، من حيث أَن في البلاد معامل لحَلْجِ القطن، تستخدم العَمَلَة مياومة ليقوموا بإِعداد القطن للشَّحن والإصدار، ويستغرق هذا العمل أَربعة أَو خمسة أَشهر كل سنة، وكانت أُجور هؤلاء نزرة تتراوح بين ٧,٥ وَ ١٠ بنسات للبالِغ، و٦ بنسات للحَدَث، وكان البالغون والأَحداث يشتغلون في بعض الأَحايين اثنتي عشرة ساعة، وفي الغالب خمس عشرة ساعة، وعند اختلاف المعتاد ست عشرة إِلىٰ ثمان عشرة ساعة في اليوم»[١].

وفي الهند: بدأَ الاحتلال الإنكليزي سنة ١٨٠٥م بأَعمال شركة الهند الشَّرقيَّة، الَّتي كان هدفها الظاهري التِّجارة وجني الأَرباح، واكتساب الأَموال، إِلَّا أَنَّها وطَّدت قدمها، وأَحكمت سيطرتها بتؤدة، وتحوَّلت إِلىٰ حكومة تامَّة ذات سياسة طموحة، ترمي إِلىٰ الاستعمار والاحتلال، وفي سنة ١٨٥٧م، أَخمدت بريطانية ثورة، وأَلغت شركة الهند الشَّرقيَّة، وجعلت الهند تابعة مباشرة للتَّاج البريطاني، ونودي

---

(١) حاضر العالم الإسلامي: ٤/٢١٥.

بعد ذلك بالملكة فكتوريا إمبراطورة الهند.

قال غاندي: «إعلموا أَنَّ الإنكليز يبتغون نيل القناطير المقنطرة من مال بلادنا، والتَّلذُّذ بثمراتنا، والانتفاع بقوَّة رجالنا وأَولادنا، كلُّ ذلك في سبيل جشعهم الإمبراطوري، ونهمتهم الاستعماريَّة»(١).

وقال الكاتب الهندي براماثانات بوز: «إنَّ الاستنزاف يسوق الهند إلىٰ درك الخراب سَوْقاً»(٢).

ونتيجة لهذه السِّياسة البريطانيَّة الاستعماريَّة، اجتاحت المجاعات المتعدِّدة الهند، وهي فوق كلِّ تصوُّر بشري من حيث الخسائر، لقد استأثر المستعمرون بالأرباح والمكاسب، واستنزاف منابع الثَّروة الوطنيَّة ببضاعاتهم وأَدواتهم، وتركهم السَّواد الأَعظم من الهنود عالة عليهم، بحيث إذا احتُبِسَ المطر قليلاً، أَو هبَّت علىٰ الزُّروع لافحة سموم، فقلَّ المحصول، وارتفعت أَسعار الغذاء، لم يبقَ أَمام هؤلاء الأَهالي سوىٰ الموت جوعاً، أَو بالأَمراض الَّتي سبَّبها سوء الغذاء، لأَنَّ الَّذي يأخذونه بدل عملهم، لا يعود كافياً لشراء قوتهم الضَّروري، ولا نجد إنكليزياً واحداً مسَّه الجوع، أَو مات سغباً.

هذه جوانب يسيرة من سيرة الاستعمار في مستعمراته، بينما كتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ وُلاتِهِ: آنظر إلىٰ من قِبَلَك

---

(١) حاضر العالم الإسلامي: ٤/٢٠١.

(٢) حاضر العالم الإسلامي: ٤/٢٢٤.

منٍ الأَرضٍ فأَعطوها بالمـزارعة علىٰ النِّصف، وإِلاَّ فعليٰ الثُّلث، حتَّىٰ تبلغ العُشر، فإِن لم يزرعها أَحدٌ فامنحها، وإِلاَّ فأنفق عليها من مال المسلمين، ولا تُبيرَنَّ قبلك أَرضاً.

وأَنشأَ العبَّاسيُّون ديوانـاً خاصّـاً للقنوات وأَعمـال الرِّيِّ والزِّراعة، عُرِفَ بديوان الماء، بلغ عدد المشتغلين فيه عدَّة آلاف، كما خفَّضوا مبلغ الخَرَاج علىٰ الفلاحين بين آونة وأُخرىٰ تشجيعاً لهم، وزيادة في دخلهم ورفاهيتهم.

الاستعمار جهل وتأخر وسيطرة اقتصادية وإِفقار للشُّعوب.

والإِسلام علم وحضارة ورفاه، وخير لكلِّ السُّكان علىٰ اختلاف أَلوانهم وعقائدهم، فلا يلتقيان.

يقول المؤرِّخ والمفكر الإِسباني سانسيت أُولبورنوت: «إِنَّ الفتح العربي الإِسلامي لإِسبانية جلب إِليها كلَّ الخير»، فهل جلب الاستعمار الأُوروبي أَو الإِمريكي الخير للبلاد الَّتي فُتِحَت؟!؟.

لقد صار ابن البلاد الَّتي فتحت يحمد الله عـزَّ وجلَّ ويشكـره لكونـه مسلماً، ولأَنَّـه صار علىٰ دين الفـاتحين وحضارتهم، فهل حمد الله إِنسانٌ في مستعمَرَة إِيطاليَّة أَو برتغاليَّة أَو إِنكليزية.. لأَنَّه استُعْمِرَ وتفرنَسَ أَو تطليَنَ؟.

لا قطعاً، فلماذا؟!؟.

لإِنَّ سماجة الاستعمار، لن تلتقي بسماحة الإِسلام!!.

* * *

«٣»

خَاتِمَةٌ

حِوَارٌ بَيْنَ داعٍ وَمُبَشِّرٍ

حِوَارٌ بَيْنَ دَاعٍ وَمُبَشِّرٍ

* الغـزو الفكري: (استشـراق وتبشير)، تعبير دقيق لمعركة لا نسمع فيها صليل السُّيوف، ولا أزيــز الــرُّصــاص، ولا أنـين الجرحىٰ، معركة صامتة تريد أن تصرع الأمة فكرياً.

لقد فشل الاستعمار العسكري، كما فشل من قَبْلِه الغزوُ الصَّليبي، فبدأ الغرب في التَّفكير جدِّياً بالغزو الفكري، الذي جاء مرحلة تالية متمِّمة للغزو العسكريِّ، الَّذي هدفه:

صرف الشُّعوب الإسلاميَّة عن معتقدها ومنهجها، وتبنِّي معتقدات الغرب وأفكاره، وما يترتَّب عن هذا من ضياع.

والغزو الفكري أَراد من أَصالتنا الجذور لا القشور، فوجَّه حملاته إلىٰ القرآن الكريم واللُّغة العربيَّة والتَّاريخ وأَعلامه.

ومن ركائز الغزو الفكري: الاستشراق الَّذي وضع خدماته بين يَدَيْ الكنيسة لتجهيز جيوش المبشِّرين، لغزو العـالَم الإسلامي وتنصيره، فالاستشراق (غزو لا نراه)، ولكـنَّا نرىٰ من آثاره الهامَّة: (التَّبشير).

الغزو الفكريُّ: تعبير دقيق لمعركة لا نسمع فيها صليل

السُّيوف، ولا أَزيز الرَّصاص، ولا أَنين الجرحىٰ، معركة صامتة، تريد أَن تصرع الأُمَّة فكريّاً، فتسهل قيادتها بعد أَن تنحرف عن أَصالتها، حرب مبرمَجَة، وإِعلام كاذب قادر علىٰ التَّزوير وقَلْب الحقائق، ومما يؤسف له، أَنَّ الفكر الأَصيل يعاني من الضَّعف والعجز، وضيق إِمكاناته، وجهل أَبنائه.

نشرت مجلة (تَايْم) الأَمريكيَّة في عددها الصَّادر بتاريخ ١٩٨٧/٢/١٦ م، وعلىٰ الصَّفحة ٤٨ تحقيقاً صغيراً في حجمه، كبيراً في معناه، عن نشاط الكنائس البروتستانتيَّة الأَمريكيَّة ـ الكنديَّة في العالم، تحت عنوان: «الفرقة الأَجنبيَّة البروتستانتيَّة»، مستعيرة هذه التَّسمية من «الفرقة الأَجنبيَّة الفرنسيَّة»، وهي فرقة عسكريَّة جنَّدتها فرنسة أَيَّام إِمبراطوريَّتها من أَجل فرض سيطرتها علىٰ البلاد المستَعْمَرَة، وكان يضرب المثل بها في الشِّدَّة والعنف، وقد أَشار هذا التَّحقيق إِلىٰ الجهود الَّتي يبذلها مبعوثو الكنائس في إِفريقية، علىٰ الرَّغم من تعرُّضها للأَخطار الجسيمة، والأَمراض الفتَّاكة، فهم يجوبون القارَّة طولاً وعرضاً في رحلات لا تنتهي، لكنها تكلَّلت ـ حسب رأَيهم وتخميناتهم ـ بالنَّجاح..

وتقول المجلَّة: إِنَّ عدد المبعوثين الَّذين أَرسلتهم الكنائس البروتستانتيَّة الأَمريكيَّة ـ الكنديَّة إِلىٰ الخارج، بلغ **٣٩٣٠٩** من الَّذين اتَّخذوا التَّبشير بالنَّصرانيَّة حرفة لهم(١).

* * *

(١) أَما تمويل هذه البعثات، فيأتي من التَّبرُّعات الَّتي تبلغ حوالي مليار=

وعلىٰ أَطراف غابة في أواسط إفريقية، إلتقىٰ داعٍ مسلم، بمبشِّرٍ صليبي، فنظر الدَّاعي المسلم إلىٰ المبشِّر نظرةً شفقة وعتاب واستغراب، ونظر المبشِّر إلىٰ الدَّاعي نظرة كِبْرٍ واستخفاف وحقد.

وسأل الدَّاعي المبشِّر: ما الَّذي جاء بك إلىٰ هذه الأَصقاع؟!.

المبشِّر مجيباً: السَّبب الَّذي جاء بك إليها.

الدَّاعي: أَنا جئت تاجراً بقِرْشٍ حلال، وهذه بلدي وداري، أَنا إفريقي، أَسكن السُّودان الأَوسط، أنا من أفراد قبيلة (الهَوْسَا)، ما الَّذي جاء بك، فأَنا أَرىٰ الحقد والتَّعصُّب يترشَّحان من بين عينيك، وفي لهجتك، وحركاتك، وانفعالاتك.

المبشِّر: أَنا جئت من أُوروبة، جئت لتنصيركم، فلن يدخل ملكوت السَّماءِ مَنْ لم يؤمن بيسوع المخلِّص، جئت أُقدِّم عوناً غذائياً وصحيّاً وتعليميّاً.

الدَّاعي: إِنَّني أَعلم ما يدور في خَلَدك، وخَلَد مَنْ أَرسلك، لقد قرَّرتم في مؤتمراتكم التَّبشيريَّة، وخصوصاً مؤتمر (لوكناو)، الَّذي انعقد في الهند سنة ١٩١١ م، برعاية

= و ٣٠٠ مليون دولار في السَّنة، من أَمريكة وكندة فقط، ومن البلدان الإِسلاميَّة الَّتي خصَّها التَّبشير بجهوده (أَندونيسية)، مستغلاً مصائب الشَّعب الأَندونيسي الطارئة.

البابا، ورئاسة صموئيل زويمر، تحت شعار: اللَّهم يا مَنْ يسجد لكَ العالَم الإسلامي خمس مرَّات في اليوم بخشوع، انظر بشفقةٍ إلىٰ الشُّعوب الإسلاميَّة، وأَلهِمْهَا بالخلاص بيسوع المسيح، لقد قرَّرتم التَّركيز علىٰ القارة الإفريقيَّة، وزيادة الأَعمال التَّبشيريَّة فيها.

المبشِّر: لا، أَبداً، أَنا جئتُ أُقدِّم هدايا يسوع إلىٰ المحرومين.

الدَّاعي: لقد جئتَ بغزوٍ فكريٍّ متمِّماً لغزوكم العسكري، لتبقىٰ الشُّعوب خاضعة لنفوذ القوىٰ المعادية لها، ولصرفنا عن ديننا، وما يترتَّب علىٰ هذا الصَّرف من ضياع.

المبشِّر: أَيُّ غزوٍ فكريٍّ تتحدَّث عنه؟!.

الدَّاعي: أَتحدَّث عن غزوكم الفكري، الَّذي يحاول القضاء علىٰ الجوهر لا العَرَض، ويشوِّه الأُصول لا الفروع، لتصلوا إلىٰ استعباد الشُّعوب، وامتصاص خيراتها ونهبها.

المبشِّر: أَنتَ تدعو إلىٰ دين، وأَنا أُبشِّر بدين، فما الفَرْق بيننا؟!.

الدَّاعي: الفروق عشرة، اسمعها منِّي، يا مَنْ جئتَ بهدايا يسوع المسيح إلينا؛ **أُولاها**: أَنَّك أَداة استعماريَّة، سياسيَّة واقتصاديَّة، فمنذ كشوفاتكم الجغرافيَّة جاءت جموعكم ووراءها دول تريد استعمار الشُّعوب، وهذا ما فعله البرتغاليون والإسبان، والإنكليز والفرنسيُّون والطُّليان..

أَنسيتَ القنص الآدمي، وبيع الرَّقيق في أُوروبة وأمريكة بأَثمانٍ باهظةٍ؟!.

وعندما طلبت ملكة إنكلترة من رجال الدِّين مبرِّراً لهذه التِّجارة، أَسعفوها بنصوص التَّوراة الَّتي أَباحت الرِّق[1]؟!.

المبشِّر: وأَنت أَيُّها الدَّاعي؟.

الدَّاعي: أَنا هنا بجهودي الذَّاتيَّة، لا أُريد كسباً دينويّاً من دعوتي، فعندما أَدعو إِلىٰ الإِسلام، يعني ذلك أَنَّني أَدعو إِلىٰ المساواة والإِخاء والعدل والطمأنينة للنَّاس كلِّهم، كلُّ ذلك بالحكمة والموعظة الحَسَنة، وشتَّان بين المأجور المستغل، وبين مَنْ سعادته في تقبُّل الله عزَّ وجلَّ لعمله.

ثانياً: أَنتَ أَيُّها المبشِّر تستغل آلام النَّاس هنا لسلب حرِّيَّة اعتقادهم، إِن هديَّة يسوع إِن قُدِّمت، فهي حيلة للتبشير، تستغل آلام البشر، فمعادلتكم معروفة: حيث وجد بشر وُجِدَت الآلام، وحيثما وجدت الآلام وُجِدَت الحاجة إِلىٰ الطِّب، وحيثما وُجِدَت الحاجة إِلىٰ الطِّب وُجِدَ التَّبشير، «فلن ينصرف مريضٌ من مستوصفاتكم إِلَّا ومعه نسخة جيِّدة الطُّبع من الإِنجيل، مع وصفة علاجيَّة خاطئة لن تشفيه، ليتكشَّف أَن الإِيمان بالإِنجيل دواؤه وشفاؤه، وليس دواء آخر غيره.

المبشِّر: ولٰكن لنا مدارس للتَّعليم، لنشر العِلْم والمعرفة!!.

(١) انظر سفر الخروج: ١٧/١، وَسفر التَّثنية الإِصحاح العشرون.

الدَّاعي: التَّعليم في مدارسكم واسطة لا غاية، فقولكم: «إنَّ الشَّجرة لا بدَّ أن يقطعها أَحَدُ أعضائها»(١). معروف، تبشير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم، أَمَا قال المبشِّر (المردوغلاس) في الجزائر ـ البلد المسلم ـ : «إن هذه السُّبل لا تجعل الأطفال نصارىٰ، ولكنها لا تبقيهم مسلمين كآبائهم»، فأَنتم تعلمون أَنَّ تنصير المسلمين أَمرٌ صعب، والبديل (التَّغريب)، إنَّ مدارسكم حملت مهمة إخراج المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالقيم الَّتي تعتمد عليها الأُمم في حياتها لبقائها، وبذلك أَنتم ـ بعملكم هذا ـ طليعة الاحتلال الاستعماري في البلدان الإسلاميَّة، فأَينما حللتم، حلَّ أَعداء الإنسانيَّة الثَّلاثة: الفقر والجهل والمرض، وتاريخكم الاستعماري خير شاهد صدق(٢).

المبشِّر: وأَنت؟.

الدَّاعي: أَنا سلوكي دعوة، ومعاملتي الصَّادقة هداية، لا أُريد من ورائهما مكسباً ماديّاً، وأَينما وصلت فتوحاتنا الإسلاميَّة، بُنيت المدارس، ولما كان طلب العلم فريضة من

---

(١) من مقرَّرات مؤتمر التَّبشير المنعقد في القاهرة سنة ١٩٠٦م، انظر: (الغارة علىٰ العالم الإسلامي)، ص: ٢٤ و٣٢.
(٢) يقول نيتشه في (عدو المسيح): ٣٦: «إن تاريخ الكنيسة يحمل صفحات حمراء دامية في أَمريكة وإفريقية وآسية وأُوروبة».

المهد إلىٰ اللَّحد، سطعت في سماء العلوم كلِّها أَسماء علماء كبار من أَبناء البلاد الَّتي فتحت.

المبشِّر: وثالثاً؟.

الدَّاعي: ثالثاً، أَنتَ تخاطب العاطفة، ولا تخاطب العقل والمنطق والعلم، تخاطب النَّاس بأَسرار، وتخاطب جوعهم، ومرضهم، وحاجاتهم المادِّيَّة، وإِن سأَلوك قائلين: كيف نؤمن أَن الثَّلاثة واحد، والواحد ثلاثة؟ قلت: هذه أَسرار، وبولس الرَّسول، عنصر خطير في حياة المسيحيَّة، فهو يهودي اندسَّ في المسيحيَّة، فهو يصرخ قائلاً: «أَنا فريسي ابن فريسي»، [الإصحاح ٢٣]، ثمَّ يصرِح: «أَنا رجل يهودي» [الإصحاح ٢٢ ـ أَعمال]، لذلك يقول فردريك نيتشه: «الله كما خلقه بولس، هو إِنكار لله، وديانة كالمسيحيَّة لا تمس الواقع في أَيَّة نقطة، وتتفتت حالما يدخل الواقع فيها من أَيَّة نقطة..»(١)، ولوقا ـ زميل بولس ـ يتَّهمه بأَنَّه أَفتك أَعداء الدِّيانة المسيحيَّة الَّذي يفشي القتل في تلاميذ الرَّب، [الإصحاح ٩ ـ أَعمال]، وفي الإِصحاح ذاته، يحكي لوقا رواية غير مقبولة تقول: إِن بولس انقلب فجأة، وفي لحظة واحدة، من موقف العدو الأَلد الفتَّاك المخيف، إلىٰ مرتبة التَّقديس، وذلك حينما كان علىٰ مشارف دمشق.

التَّوحيد أَساس دينكم وجوهره، والوثنيَّة طارئة، فكيف

---

(١) عدو المسيح: ٤٧.

يصلب الإله[1]؟ كيف تلده أُمٌّ بلا زواج؟ وكيف أَصبح الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة؟!.

أَمَّا أنا فأُخاطب العقل الواعي، المثقَّف العالِم بقولي الصَّريح: الله هو قيُّوم السَّماوات والأَرض، ليس كمثله شيء: ﴿لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُواً أَحد﴾، عقيدة واضحة بسيطة، تخاطب الفكر النَّاضج دون مواربة.

أَمَّا النقطة الرَّابعة، فهي: مجال عملكم - أَيُّها المبشِّر - في المناطق الفقيرة، حيث أَعداء الإِنسان: الجهل والمرض والفقر، هناك ترتع، وهناك مجال إِنتاجك الخصيب.

المبشِّر: وأَنتَ؟.

الدَّاعي: مجال الإِسلام مع كبار العلماء، وعلية القوم، مجال الإِسلام مع المفكِّرين النَّاضجين، أَمثال: رجا غارودي، الدكتور موريس بوكاي، يوسف إِسلام (كات استيفنس)، مع إِتيان دينييه، مع اللُّورد هِيدلي الَّذي كان لإِسلامه ضجَّة كبيرة لمركزه الاجتماعي، مجالنا مع الفيلسوف رينيه جينو، الَّذي أَسلم لأَن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الَّذي لم ينله التَّحريف أَو التَّبديل، مع الدكتور جرينيه الَّذي قال: أَسلمت لأَنَّني تيقَّنت أَنَّ محمَّداً ﷺ أَتىٰ بالحقِّ الصراح من قبل نيف وأَلف سنة.

---

(١) ويستغرب (نيتشه) ويسخر عندما يقول في المقطع ٥٣ من المرجع السَّابق: «الله علىٰ الصَّليب؟!».

المبشِّر: خامساً؟.

الدَّاعي: أَنت تقول: «لا خلاص للنَّاس إلَّا بالمسيح المصلوب»، ولن يدخل ملكوت السَّماء من لم يؤمن بالإِلٰه المصلوب، وأَنا لا يضرني من بقي علىٰ دينه، ولا أُعاديه، ولا يسمح لي ديني أَن أَزدريه، أَو أَن أحتقره، ما عليَّ إلَّا البلاغ، فالخَلْق كلُّهم عيال الله، وأَحبهم إلىٰ الله أَنفعهم لعياله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ﴾، لذلك عاش غير المسلم في ظلِّ الخلافة الإِسلاميَّة بأَمان وطمأنينة، وما وقف في طريقه إلىٰ مكان عبادته مُسْلِمٌ، أَما أَنتم، فما فعلتموه في إِسبانية، وصِقِلِّيَّة، وخلال الحروب الصَّليبيَّة معلوم ومفهوم للنَّاس كافة.

المبشِّر: وماذا بعد؟

الدَّاعي: سادساً، وراءك دول تدعمك لا تؤمن بدين، ولا مكانة للرُّوح في حساباتها، إِنَّها دولٌ علمانيَّة، تدعم المبشِّرين في إِفريقية وآسية. والكنائس إما مغلقة، وإِمَّا فارغة عندها، فكيف ذلك؟ أَليس الهدف من وجودكم هنا إِذن: خيرات الشُّعوب، وعداء الإِسلام الصَّريح، وإِفلاسكم في بلدانكم.

المبشِّر: وأَنتَ؟.

الدَّاعي: أَنا ورائي يقيني بعظمة ديني، وطاقتي مستمدَّة من طمأنينتي إلىٰ كتاب الله عزَّ وجلَّ.

وسابعاً: إنَّك تعتمد الكذب والدَّجل لتشويه شريعة الآخرين، وهذا في عِلْم النَّفس يسمَّىٰ (إسقاط)، وفي أَمثلة العرب: «رَمَتْني بِدائِها وَانْسَلَّت»، فكذبكم علىٰ الإسلام والقرآن والنَّبي كثير كثير، والبحث العلمي الموضوعي ما عاد يصدِّقكم في ادعاءاتكم.

«لا يخطئون فقط في كلِّ جملة يقولونها، بل يكذبون، أَي إِنَّهم لم يعودوا أَحراراً في أن يكذبوا ببراءة وبسبب الجهل..»(١).

ورغم هذا الهجوم والافتراء، عندنا من سعة الصَّدر ما يتَّسع لردِّ الهجوم بحكمة، ودفع الافتراء بتعقُّل.

المبشِّر: سنبقىٰ علىٰ تبشيرنا في جميع أَرجاء العالم الإسلامي، (فالغاية تبرِّر الواسطة).

الدَّاعي: ثامناً، تحت تصرُّفكم إمكانات مادِّيَّة غير محدودة، وأَنا لا أَملك إلَّا حجَّتي ومنطقي العقلاني العلمي، لا أَسرارِ ولا تناقضات، وما الإمكانات المادِّيَّة الَّتي بين أَيديكم إلَّا لأَن حجتكم هشَّة، ومنطقكم ملتوٍ.

تاسعاً: وأَنتَ تعتمد تشويه الإسلام وتحقير أَهله، وتَصِمُهم بأَنَّهم أَعداء المدنيَّة والحضارة.

المبشِّر: وأَنتَ؟.

---

(١) عدو المسيح، المقطع: ٣٨، هذا ما قاله نيتشه بحق رجال الدِّين في أُوروبة.

الدَّاعي: إسلامنا يوجب علينا الإيمان بعيسىٰ بن مريم (عليه الصَّلاة والسَّلام) نبيّاً مرسلاً، وبأَنَّ أُمَّه بَتُول صِدِّيقة، هذا ما يفرضه عليَّ ديني، وهو نفسه يمنعنا من أَن نقول في عيسىٰ - أَو في أُمِّه - ما يقوله اليهود!؟!

إنَّك تحاول تحقير الآخرين لتسمو وترتفع، وأَنا لا يهمني تنقيص الآخرين لأسمو وأرتفع، فالإسلام سامق شاهق دون تحقير أَحد، وفي النِّهاية ستجد أُوروبة فيه حلًّا لمشكلاتها الَّتي أَغرقتها بالمادِّيَّة.

وأَخيراً عاشراً، أَراكم تتلوَّنون وتتبدَّلون حسب مناطق التَّبشير، حتَّىٰ اعتبرتم تعدد الزَّوجات في إِفريقية أَمراً مسموحاً به، واحتقرتموه وهاجمتموه في أَصقاع أُخرىٰ، وأَنا لا أَملك التَّبديل أَو التَّغيير، ولا يملكه غيري، وفضائحكم الجنسيَّة معروفة ومعلومة..

قاطع المبشِّر الدَّاعِيَ، ولملم قلنسونه وصليبه وثيابه، ومضىٰ يشتم الدُّعاة والإسلام ونبيَّ الإسلام، فقال الدَّاعي: ديني وخُلُقي لا يسمحان لي أَن أَشتمك، أَو أَشتم ما تعتقد، ولكني أَقول لك: ماذا يضيركم في انتشار الإسلام علىٰ سطح الكرة الأَرضيَّة، وقد طرح مبدأ المآخاة والتَّسامح، ولم يجعلها شعاراً، بل منهجاً أَثبتته الوقائع والأَعمال في كل بلد حرَّره المسلمون؟.

قال رجاء غارودي: «لم يدرس الغربُ الإسلامَ دراسة

صحيحة، حتَّىٰ في الجامعات الغربيَّة، وربَّما كان هذا مقصوداً مع الأسف».

ولذلك أَلَّف الكاتب البريطاني (جان دوانبورت) كتاباً عنوانه: (اعتذار لمحمَّد والقرآن)، اعتذر فيه مؤلِّفه عن التَّصوُّرات والأحكام الَّتي كانت شائعة في الغرب حول نبيٍّ الإسلام والقرآن الكريم.

المرحلة القادمة مع إشرافنا علىٰ نهاية القرن العشرين، مرحلة الانتفاع من الخير أَينما وُجد، وخصوصاً بعد أَن اعترف الفاتيكان بالإسلام ديناً سماويّاً في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثَّاني، والوثائق المجمعيَّة المطبوعة بالعربيَّة، الطَّبعة الثَّانية، سنة ١٩٨٤ م، الصَّفحة ٨٦٣، ذكرت الديانة الإسلاميَّة قبل الديانة اليهوديَّة، وجاء فيها حرفيّاً: «وتنظر الكنيسة بعين الاعتبار أَيضاً إِلىٰ المسلمين، الَّذين يعبدون الإله الواحد، الحيَّ القيوم الرَّحيم، الضَّابط الكُل، خالق السَّماء والأرض»، وفي الصفحة ٨٦٤: «وإِذا كانت قد نشأت علىٰ مرِّ القرون منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيِّين والمسلمين، فالمجمع المقدَّس يحضُّ الجميع علىٰ أَن يتناسوا الماضي، وينصرفوا بإِخلاص إِلىٰ التَّفاهم المتبادل».

فنرجو أَلَّا يكون الكلام حَسَناً، والفعل قبيحاً.

كقول الاستعمار «برسالة الرَّجل الأبيض»، وأَفعاله السَّمجة الوحشيَّة في المستعمرات!!.

* * *

المراجعُ وَالمَصَادِرُ

- أخطار الغزوي الفكري علىٰ العالم الإسلامي: د. صابر طعيمة، عالم الكُتُب، ط ١، سنة ١٩٨٤.
- آراء يهدمها الإسلام: شوقي أبو خليل، دار الفكر، ط ٥، سنة ١٩٨٦.
- الإسلام: هنري ماسيه، منشورات عويدات ـ بيروت، سنة ١٩٦٠.
- الإسلام الأمس والغد: محمد أراغون، وكوي غارديه، ترجمة علي المقلد، دار التّنوير ـ بيروت، سنة ١٩٨٣.
- الإسلام بين العلم والمدنيَّة: الإمام محمد عبده، كتاب الهلال، سبتمبر (١٩٦٠)، العدد: ١١٤.
- الإسلام وحقوق الإنسان (ضرورة.. لا حقوق): د. محمَّد عمارة، عالم المعرفة ـ الكويت، العدد: ٨٩، مايو (أيار) سنة ١٩٨٥.
- الإسلام روح المدنيَّة: مصطفىٰ الغلاييني، طبعه سنة ١٩٠٨.
- الإسلام في وجه الزَّحف الأحمر: محمَّد الغزالي، منشورات المكتبة العصريَّة سنة ١٩٦٦.

- اسمعوها منّي صريحة أيُّها العرب: أبو الحسن علي الحسني النَّدوي، ط ١، سنة ١٩٥٧.
- إفريقية الغربيَّة في ظلِّ الإسلام: نعيم قدَّاح، وزارة الثَّقافة والإرشاد القومي، بلا تاريخ.
- البعثات اليسوعيَّة: د. طلال عتريسي، الوكالة العالميَّة للتَّوزيع، ط ١، سنة ١٩٨٧.
- تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة: كارل بروكلمان، دار العلم للملايين - بيروت.
- تاريخ العرب (مطوَّل): فيليب حِتِّي، دار الكشاف - بيروت.
- تجارة المحيط الهندي في عصر السِّيادة الإسلاميَّة: د. شوقي عبد القوي عثمان، عالم المعرفة - الكويت، العدد ١٥١.
- التَّغريب: محمد سليم قلالة، دار الفكر - دمشق، ط ١، سنة ١٩٨٨.
- تغطية الإسلام: د. إدوارد سعيد، مؤسَّسة الأبحاث العربيَّة، ط ١، سنة ١٩٨٣.
- حاضر العالم الإسلامي: لوثروب ستودارد، ترجمة عجاج نويهض، دار الفكر - بيروت، ط ٤، سنة ١٩٧٣.
- الحرب في القانون الدَّولي العام: العميد بشير مراد - دمشق، ط ١، سنة ١٩٧٣.
- حضارة العرب: غوستاف لوبون، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٣، سنة ١٩٧٩.
- دفاع عن الإسلام: لورافيشيا فاغليري، دار العلم للملايين - بيروت، ط ١، سنة ١٩٦٠.
- صراع العرب خلال العصور: محمد عبد الغني حسن،

مؤسّسات المطبوعات الحديثة (مع العرب، العدد ٢).
- صحيفة من تاريخ إنكلترة في مصر: د. منصور مصطفىٰ رفعت، مصر، سنة ١٩١٥.
- صورة المستعمِر والمستعمَر: ألبير ميمّي، دار الحقيقة - بيروت، ط ، سنة ١٩٨٠.
- طه حسين (حياته وفكره في ميزان الإسلام): أنور الجندي، دار الاعتصام، ط ١، سنة ١٩٧٦.
- في طلب التّوابل: سونيا ي. هاو، مشروع ١٠٠٠ كتاب، رقم ٩٨، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، سنة ١٩٥٧.
- قادة الغرب يقولون: دمّروا الإسلام أبيدوا أهله: جلال العالم، دار السّلام، ط ٢، سنة ١٩٧٥.
- لا شيوعيّة ولا استعمار: عباس محمود العقاد، كتاب الهلال، العدد ٨٠.
- ماذا خَسِرَ العالم بانحطاط المسلمين: أبو الحسن علي الحسني النّدوي، مكتبة دار العروبة - مصر، ط ٥، سنة ١٩٦٤.
- مجلّة كلّيّة الدّعوة الإسلاميّة: العدد ٤، سنة ١٩٨٧. (الجماهيرية العظمىٰ - طرابلس).
- المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقية: د. عبد الله عبد الرزّاق إبراهيم، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٣٩.
- مع حركة الإسلام في إفريقية: د. عبده بدوي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١.
- موسوعة السّياسة: المؤسّسة العربية للدّراسات والنّشر، ط ١، سنة ١٩٧٩.


لسان العرب

المُحْتَوىٰ

صفحة


أ علاء الدين شوقي
الأستاذ / عـلاء الدين شـوقي

* *
*